فكر وفن

٣٦

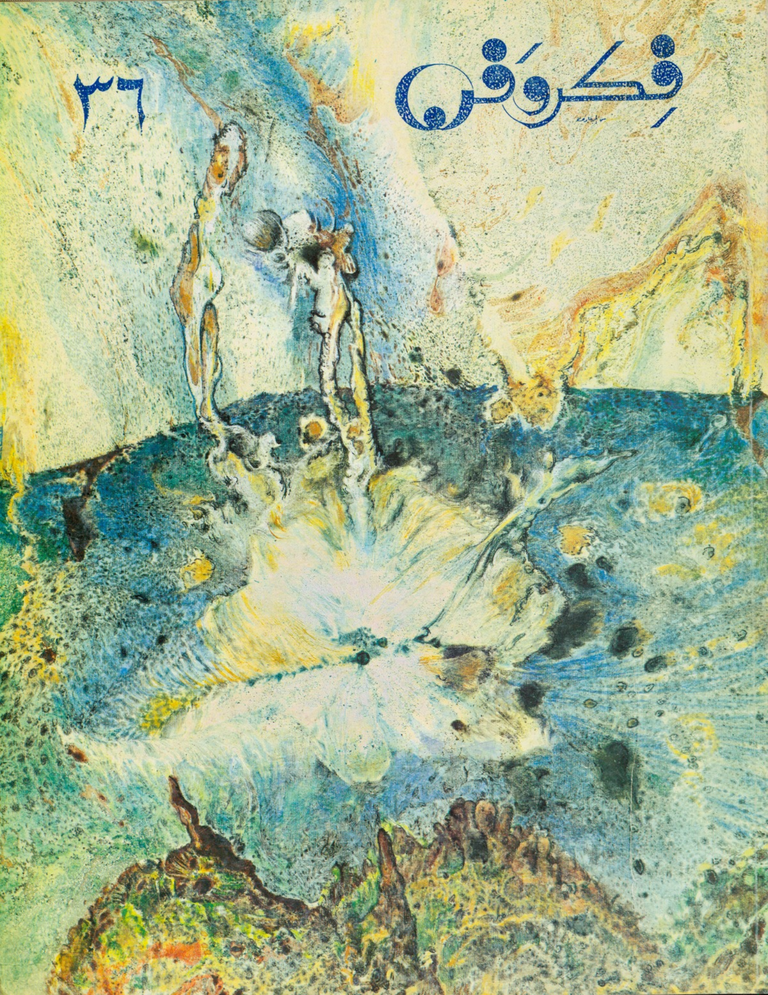

Beim Tag, der steigt!
Und bei der Nacht, die schweigt!
Verlassen hat dich nicht dein Herr, noch dir sich abgeneigt.
Das dort ist bessert, als was hier sich zeigt.
Er gibt dir noch, was dir zu deiner Lust gereicht.
Fand er dich nicht als Waisen, und ernährte dich?
Als irrenden, und führte dich?
Als dürftigen, und mehrte dich?
Darum den Waisen plage nicht,
Dem Bittenden versage nicht,
Und deines Herren Huld vermelde!

Sura 93
Deutsch von Friedrich Rückert

وَالضُّحٰى ۝ وَالَّيْلِ اِذَا سَجٰى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

وَمَا قَلٰى ۝ وَلَلْاٰخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْاُوْلٰى ۝ وَ

لَسَوْفَ يُعْطِيْكَ رَبُّكَ فَتَرْضٰى ۝

سورة الضحى، آية ١-٤

Nr. 36 1981 18. Jahr

العدد ٣٦ ١٩٨١ العام ١٨

FIKRUN WA FANN

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

فكر وفن

Herausgeber: Annemarie Schimmel und Albert Theile, in Verbindung mit Arnold Hottinger

تصدرها أنا ماري شيمل وألبرت تايله
بالاشتراك مع أرنولد هوتنجر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
دوريات إهداء

٢ ڤيبكه ڤالتر ، صورة المرأة في ألف ليلة وليلة

Wiebke Walter, Das Bild der Frau in Tausendundeiner Nacht

٢٢ جان ماريك ، الشعر الأوردي المعاصر
تصوير الواقع في شعر فيض أحمد فيض

Jan Marek, Die Darstellung der Realität in der Urdu-Dichtung von Faiz Ahmad Faiz

٣٢ يانوس ريس ، نظرة على الأدب في السنغال

János Riesz, Einblicke in die senegalische Literatur

٤٧ بنو إكمان ، الرياضيات في العصر الحديث

Benno Eckmann, Mathematik heute

٥٤ ولفقانج هاوسمان ، نظرة على قضايا الطب الحديث ومشاكله

Wolfgang Hausmann, Ein Blick auf die Problemfelder der modernen Medizin

٦٦ الانسان والحصان Mensch und Pferd
هلموت فون مولتكه ، العربي وفرسه

Helmuth von Moltke, Der Araber und sein Pferd

٧٦ هانز روبرت رومر ، ريشارد هارتمان ،
بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده

Hans Robert Roemer, Richard Hartmann. Anläßlich seines hunderten Geburtstages

٨٢ مفكرة ثقافية Kulturchronik

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية
كتب عربي
(إهداء)

رقم التسجيل

صورة الغلاف :
من تصميم وتنفيذ كنوت ليزه .

يقدم الناشر ودار النشر شكرهما لكل من ساهم بمعونته في إعداد هذا العدد .

إدارة التحرير : Adresse der Redaktion: Albert Theile, CH 3027 Berne, Postfach 83, Switzerland

دار النشر : F. Bruckmann Verlag, D-8 München 20, Postfach 27, Bundesrepublik Deutschland

تظهر مجلة «فكر وفن» مؤقتاً مرتين في السنة .
الاشتراك : ٢٨ مارك الماني ، ـ النسخة الواحدة : ١٤ مارك الماني ؛
تخفيض الاشتراك للطلبة : ٥٠ في المائة .
تقدم طلبات الاشتراك الى دار النشر .

الطباعة : F. Bruckmann KG, Graphische Kunstanstalten, München

صف الحروف : Orient-Satz Berlin

١٩٨١ ، حقوق النشر ، ألبرت تايلا ، برن ، سويسرا ، و ف . بروكمان ، ميونخ .

فيبكه ڤالـتر

صـورة المـرأة في ألف ليلـة وليلـة

إعص النسـاء فتلكَ الطاعةُ الحسَنَة
فلن يفوز فتىً يُعطي النساء رَسَنَـه
يَعُقَن عن كمال في فضائله
ولو سَقَـى طالباً للعلم ألفَ سَنَـه

انّ النسـاء شياطين خُلقنَ لنـا
أعوذ بالله من كَيد الشيـاطـين
ومَن بهنّ رمـاه العشـقُ مُبتَليـاً
قدضَيّع الحَزمَ في دنيـا وفي دين
ج ٤ ، ص ٦٠٩ (١) . .

وردت هاتان القطعتان من الشعر في حكايتين مصريتين متأخرتين من حكايات ألف ليلة وليلة . ويكاد أول أبيات القطعة الثانية أن يطابق في معناه قولاً للأديب الباڤاري وأمين البلاط Aegidius Albertinus (الذي عاش من ١٥٦٠ الى ١٦٢٠) . يقول ألبرتينس : «المرأة آلة وأداة طيّعة في يد الشيطان ؛ بها جلب الى العالم كل الشرور والآثام ، وبها جعل كثيراً من عقلاء الرجال وأتقيائهم مجانين فاسقين ، إنها لئيمة وضيعة ، ولذا فهي تتبع وحي الشيطان ، وتقرن نفسها بارادته ، وتحرّك العُزاب الى الشهوة والشّبق . .» الخ . [١]

وكما نستطيع أن نضم الى أقوال هذا الأديب الباڤاري ، الذي يمثل المناهضين لحركة الاصلاح الديني ، كثيراً من الآراء المشابهة التي صرح بها معاصروه حول «المرأة الشريرة المتقلبة» ، فاننا نستطيع أيضاً في يُسر أن نجمع من ألف ليلة طائفة من الأحكام المعادية للمرأة . ففيها يرد ذكر «غفلة النساء وسخافة عقولهن وسوء تدبيرهن (١٦٢/٧/٣) . بل نُسب فيها الى الأمام عليّ أنه أوصى المسلمين قائلاً : «إتّقوا أشرار النساء وكونوا منهن على حذر ولا تشاوروهن في أمر ولا تُضيّقوا عليهن في معروف حتى لا يطمعن في المكر» (٤٣١/١) .

وجاء في حكاية أنه لا تُقرأ قصة من القصص إلاّ «عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسرين وغيرهم» .

ولكن لا تجوز روايتها على قارعة الطريق أو بمحضر النساء ، والجواري والعبيد والسفهاء والصبيان (٥٩٤/٣) . وهذا يعني أنه كان هناك ثمة تصور لأفراد الصفوة الممتازة في المجتمع ، وان المرأة قد استُعبدت من هذه الصفوة أصلاً . ونظراً الى أن مجموعة ألف ليلة وليلة ـ شأنها في ذلك شأن حكايات الأخوين جرم في المانيا ـ لا يعرفها كثير من الناس إلا في طبعات مختصرة أو مهذّبة ، فان عامة القراء لا يعرفون تلك الأقوال المشار اليها آنفاً بقدر معرفتهم لشخصية شهرزاد الحكيمة ، التي تنتصر بحلو حديثها وسحر حكاياتها على ما يُضمره الملك شهريـار من عداوة للنساء بلغت حد المرض العُضال .

ومما يروى عن الوزير البرمكي الحسن بن سهل أنه قال ما معناه أن البراعة والتفنن في قص الحكايات ليست مجرد واحدة من فضائل الأدب والتربية في قصر الخليفة ، وانما هي رأس فضائل الأدب [٢] . فلم يكن بد إذن من إجادة فن الحكاية وإحكامه لمن شاء أن يُقلّد المناصب العالية في قصور الخلفاء[٣] . ونحن ندين للأدب الشعبي بأنه بيّن لنا أن من النساء أيضاً من برعن غاية البراعة في هذا الفن .

ومن المعلوم اليوم أن القصة الخارجية في ألف ليلة وليلة ، أعني بذلك قصة شهرزاد وشهريار ، هي من أصـل هندي . إن ألف ليلة وليلة مجموعة من عناصر مختلفة

أميرة جالسة تحمل زهرة في يدها . منمنمة فارسية . أسلوب تبريز . متحف الفنون بجامعة هارڤرد . كمبردج . الولايات المتحدة الأمريكية ، هدية من جون جوليت .

ومركّبة من طبقات متعددة على بعضها بعضاً ـ شأنها في ذلك شأن الثقافة العربية الاسلامية إجمالاً في العصور الوسطى ـ ولذلك فان هذه المجموعة ليست خلواً من المتناقضات. لقد أثرت فيها طائفة من أقطار الشرق الأدنى، هي الهند وفارس والعراق والشام ومصر وتركيا. ويتبين الخبير ذلك من خلال الأسماء التي ترد فيها. والرباط الذي يجمع بين كل هذه العناصر هو اللغة العربية، التي رويت لنا فيها هذه الحكايات، ثم ما سمّاه إنُو لتمن ـ أشهر مترجمي هذه المجموعة الى الألمانية ـ «بالصيغة الاسلامية» من حمد الله «العلي القدير»، والاشارة الى قضاء أو قدر محتوم لا مفرّ للانسان منه.

وتخبرنا مصادر عربية ترجع الى القرن العاشر للميلاد، أولها «مروج الذهب» للمسعودي، ومن بعده بعدّة عقود «الفهرست» لابن النديم، أنه عُرفت[٣] حوالى ذلك الوقت في بغداد مجموعة حكايات فارسية الأصل، اسمها «هزار أفسانه» أي «ألف حكاية». وهي تشتمل على جزء من القصة الخارجية؛ وخلاصتها أن ابنة أحد الملوك، واسمها شهرزاد، قد حالت ببراعتها في رواية الحكايات بين زوجها الملك وبين قتلها بعد ليلة الزفاف، وهو ما جرت به عادته حتى ذلك الحين مع كل امرأة تزوجها. وفي ترفّع العالم المُنقطع واللغوي الجامد، يُصدر حُكمه فاتراً على المجموعة، فيقول: «وقد رأيته بتمامه دفعات وهو بالحقيقة كتاب نمث بارد الحديث»[٤].

غير أن حكمه هذا تفسره روح عصره. فقد كان ابن النديم ومعاصروه ومن خلفهم يقفون موقف الشك مما ينتجه الخيال الجامح، لا سيما إذا لم يكن مصوغاً في القالب اللغوي الفصيح ولغة الأدب العالية المُحكمة. لقد كان على الأدب أن يُمتع الصفوة المثقفة ويوسّع من آفاقها، وذلك عن طريق الفن اللغوي أولاً، والاقتدار على استعمال التقاليد المأثورة وحذق الأساليب. أما الأدب الشعبي فكان مقصوراً على طبقات من الناس، كان يُنظر اليهم في شيء من استخفاف.

ومن المؤكد أن العدد «ألف» في تسمية هذه المجموعة المشار اليها، قد قُصد به أولاً الاشارة الى طائفة كبيرة تفوق العدّ ولم يُقصد به معناه الحرفي. وفي عصر لاحق تطور عنه العنوان العربي «ألف ليلة وليلة»، ولعل السر في زيادة «ليلة» على الألف هو نوع من التطيّر أو الخوف من العدد المُقفل. وقد يحتمل أيضاً أن يكون العدد «ألف وواحد» في هذه التسمية من تأثير اللغة التركية التي نلمح آثارها في بلدان الخلافة ابتداء من القرن الخامس الهجري وبيان ذلك أن العدد «ألف وواحد» في التركية [بن بر]، وفيه جناس استهلاليّ، يُفيد مجازاً كثرة العدد، أو المبالغة في الكمية. على أن الناس قد أخذوا من بعد يتمسكون بالمدلول الحرفي لهذا العدد. وفي ذلك العهد كانت مجموعة «ألف حكاية» الفارسية قد حُشيت بحكايات بغدادية، ثم أُضيفت اليها من بعد حكايات قاهرية. والمجموعة معروفة هنا من القرن الثاني عشر للميلاد. ويظهر للوهلة الأولى أنه قد أدخلت اليها في القاهرة حكايات طريفة عن الخليفة هارون الرشيد الذي لم يكن عهد حكمه مثالياً على الاطلاق كما يحلو للقرون المتأخرة أن تصوّره.

ولم تعرف حكايات ألف ليلة وليلة نفسُها الطريق الى القاريء الأوربي، إلا بعد أن أصدر العلامة الفرنسي الذي زار الشرق François Galland (١٦٤٦ ـ ١٧١٥) ترجمة لها لأول مرة في لغة أوربية؛ فأثارت في الأذهان بروعتها وبهجتها صور الكنوز المتألقة بجواهرها، والحوريات الحسان، وعفاريت الجن ببشاعة صورهم وإن لم يكونوا دائماً أشراراً، وعجائب المصنوعات السحرية التي تُبدّل من عُسر الحياة يُسراً، مثل بساط الريح، والحصان الطائر، والمصباح السحري. ونسجت في خيال القاريء المبهور صورةً بديعةً للشرق. إلا أننا نعلم منذ أبحاث

الأميرة زيب النساء ، بنت اورنك زيب بادشاه ، تجلس فى شرفة . جزء من منمنمة . القرن التاسع عشر ، متحف لاهور .

الأميرة زيب النساء . المنمنمة كاملة .

احتفال فى مقصورة فى حديقة . منمنمة فارسية . القرن التاسع عشر .

(خسرو وشرين) مع عازفات الموسيقى .
من منظومة «خسرو وشرين» للشاعر الايراني نظامي .

Nöldeke و Östrup وفي المقام الأول Enno Littmann أن هذه المجموعة لا تشتمل على حكايات فحسب ، وانما تضم كذلك روايات عن العشق والفرسان والشطّار ، وأقاصيص ، وخرافات ، وأساطير ومُلح وطرائف . وليست الحدود بين هذه الأنواع قائمة ولا واضحة أحياناً .

ونعثر في أوربا على آثار للقصة الخارجية لألف ليلة في قصة من عصر النهضة في ايطاليا ، يرتقي تاريخها الى حوالى عام ١٤٠٠ للميلاد . على أن النصر الذي أحرزته هذه المجموعة بين الآداب الأوربية يرجع الفضل اليه الى ترجمة Galland ، إذ كان قصّاصاً مطبوعاً وعبقرياً في إعادة الأداء مع إحساس دقيق بما كان يهواه قراء ذلك العهد . فظهر من ترجمته اثنا عشر مجلداً فيما بين ١٧٠٤ و١٧١٧ ؛ وكان ظهور المجلدين الأخيرين منها بعد وفاته . وكان Galland قد وقع أول الأمر على قصة السندباد البحري . ثم حشا المجلدات الأخرى بحكايات مستمدة من مخطوط يرجع تاريخه الى القرن الخامس عشر . ومن بعد ذلك بما رواه له شفهياً وكتابةً مارونيّ من أهل حلب . هذا ولم يُعثر الى اليوم على أصل بعض ما قدّمه Galland الى القراء ، ولكنه نُقل من ترجمته الى لغات أوربية أخرى ، ثم الى بعض اللغات الشرقية . على أن من أبناء الأجيال التالية لـ Galland من انتقد أسلوبه . ومن هؤلاء Gottlieb August Bürger ، وهو يعلن عن ترجمته التي كاد يعفيها النسيان، فيذكر ترجمة Galland ويصفها بأنها «بضاعة جالان Galland العمياء البالية» [٥] .

وفي الشرق ظهرت الطبعات الأولى من ألف ليلة وليلة بعد أن دخله فن الطباعة في الثلث الأول من القرن الماضي ؛ وتُظهرنا هذه الطبعات على صورة لهذه المجموعة ، ترجع الى القرن الثامن عشر .

ولقد أبدى العلماء في أوربا اهتماماً بهذا الكتاب فترةً من الزمان ، بعد أن نبّه J.G. Herder الأذهان في بداية القرن التاسع عشر الى قيمة الأدب الشعبي .

وانني إذ أبحث فيما يلي عن صورة المرأة كما ترسُمها هذه المجموعة ، التي تضم فضلاً عن الصور الواقعية للحياة اليومية طائفةً من الحكايات الأسطورية ، فان منطلقي لذلك أن كل أسطورة تنطوي قليلاً أو كثيراً على عناصر من الواقع ، وكما أن الأسطورة قد تعكس الواقع فانها تعبر أيضاً عن أحلام الانسان وأمانيه في تخفيف أثقال الحياة وعنتها والوسائل التي يتخيلها لتحقيق ذلك .

لا أراني بحاجة الى أن أتحدث عن مكانة المرأة في الدين الاسلامي ؛ فقد ورد في القرآن (وللرجال عليهن درجة) [البقرة ٢٢٨] و(الرجال قوامون على النساء ، بما فضّل الله بعضهم على بعض . . .) [النساء ٣٤] . إن أحكام القرآن التي لم يُقصد بها أول الأمر إلاّ نساء النبي ، وتبيّن أنه ينبغي لهن أن يحتجبن إذا غادرن بيوتهن ليُكرمن [الأحزاب ٥٩] ؛ أو إذا تحدّثن الى رجال لا تربطهم بهن قرابة ، فليكُن ذلك من وراء حجاب [الأحزاب ٥٣] . إن نحو هذه الأحكام أصبحت فيما بعد قواعد عامة ، وباستحكام المجتمع الطبقي أفضت منذ القرنين الثاني والثالث الى المطالبة باستبعاد متزايد للمرأة من الحياة العامة ، والى اقتضاء تحجيب نساء الطبقة العالية والمتوسطة على الأقل ، وكذلك ما يتبعهن من الجواري .

لقد نسب الامام الغزالي (المتوفي سنة ٥٠٥ للهجرة) الى النساء ، كل شرور العالم وبلاياه . أما القرآن ، فعلى العكس من ذلك لا يذكر شيئاً عن ذنب حواء باعتبارها أم البشر الأولى ، وأعني بذلك الذنب الذي نسبه كتاب العهد القديم الى المرأة وحدها وليس الى البشر جُملةً في إخراج الانسان من الجنة ، وما استتبع ذلك من النصب والعناء الملازمين لوجوده على الأرض . إلا أن هذا التصور لم يلبث أن انتقل من اليهودية والمسيحية الى العالم الاسلامي فيما بعد . ولقد جاء في كتاب «كنز العمال» للمتقي الهندي ، من أهل القرن العاشر للهجرة ، أنه : «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» [٦] .

بل اننا نقرأ فيه أيضاً ما تعافه النفس : «ولو أن من قدمه الى مفرق رأسه قرحة تبتجس بالقيح والصديد ثم أقبلت تلحسه ما أدت حقه» [٧] .

ولا شك في أن هذه الأحاديث موضوعة على الرسول ، فهي لا تمثل إلا فكر واضعيها أو تصوّر بعض أهل القرن العاشر .

إن النظرة المُستأنية نوعاً ما في تاريخ البلاد الاسلامية وحضارتها تُبيّن لنا أنه كان ثمة دائماً نساء استطعن بما تمتعن به من فتنة وسحر وجمال وما انطوين عليه من دهاء وحيلة أن يمارسن نفوذهن من وراء الحُجُب ، بل استطعن في بعض الأحيان تولي شئون الحكم وإدارة دفّته . ومن الطبيعي أن كل أولئك النساء كنّ بنات عصرهن ونتاجه . فقد كنّ في الأغلب ربّات دسائس ومكائد ، شأنهن في ذلك شأن الرجال الذين كانوا من حولهن . ولولا أن الرجال كانوا أصحاب دسائس ومكائد ، لما اضطرت النساء الى أن ينهجن نهجهم .

لا غرو إذن أن يُصبح كيد النساء موضوعاً أثيراً محبباً ، ليس في ألف ليلة وليلة فحسب ، بل في كتب الأدب أيضاً . فالمرأة الشعبية ، والجارية المثقفة ، وابنة الملك الجميلة ، والشابة والعجوز ، وهذه أكثر من تلك ، كل هؤلاء يتمتعن بصفة ، وهي أنهن صاحبات مكائد وحيل يُدبرنها لنفع الرجال أو ضررهم ، بل أحياناً لخير شعوب بأكملها أو لشرها . ولذلك يجب على الرجل أن يتقيهن ويأخذ حذره منهن . جاء في حكاية الدليلة المحتالة «أما قلت لك أن بغداد فيها نساء تلعب على الرجال ؟» (٢٥٥/٣) .

ويبدو أن منشأ هذه الحكاية هو القاهرة ، ويمكن أن تعتبر الدليلة هذه وابنتها زنيب النصابة انموذج لكيد النساء في ألف ليلة وليلة ؛ بل لقد قيل عنها أن «وكان إبليس يتعلم منها المكر» (٤١٧/٣) .

انها تستخدم كيدها بمثابة سلاح اجتماعي ، ولكي تفوز بمركز أبيها المربح ، وقد كان مربياً للحمام الزاجل عند الخليفة ، تستغفل سيدات المجتمع البغدادي الراقي وساداته باصطناعها لسانين : «واللسان ناطق بالتسبيح ، والقلب راقص في ميدان القبيح» (٤١٨/٣) . وهي سريعة الخاطر ، ماكرة ، ولكنها نادراً ما تعبث بأحد في شر مستعينة في ذلك بآخر . ولبلاغة لسانها تفلت حتى من الصليب الذي صُلبت عليه عقاباً لها ما اقترفته من الخدع . وفي آخر الأمر ، تحصل على منصب مُربح آخر ، ليس على سبيل المكافأة ، ولكن كي تكفّ عن تدبير مكيدة جديدة ، فتُعين بوابة ومشرفة على زهاء ٤٠ عبداً في خان الخليفة .

وكان الناس يجدون متعة ولذة فيما تصطنعه النساء من المكائد لصد عاشق ثقيل ، وذلك كما في قصة امرأة التاجر التي كانت تعرف ، لتخلّص حبيبها ، كيف تثير الرغبة في المقدّم ، ثم القاضي ومن بعد الوزير وأخيراً الملك . فهي تدعوهم جميعاً الى دارها ، واحداً بعد الآخر في اليوم نفسه ، ثم تحبسهم في خزائن . وبرسالة من المقدم تُطلق سراح حبيبها لتفرّ معه بالثياب النفيسة لعشاقها . أما أولئك الذين انطلت عليهم حيلتها فيُخلّصون من حبسهم بعد أن كادوا يموتون جوعاً ؛ وعندئذ لا يسعهم الا أن يضحكوا لهذه الخدعة ولحماقتهم (١٥٨/٢ ـ ١٦٦) .

ويبدو أيضاً أن صنوف الحيل التي راوغت بها النساء أزواجهن ليلتقين بعاشق أو أكثر قد جعلت جمهور المستمعين الى رواة الحكايات يتبسّمون ويتغامزون . ويظهر لنا أن هذا السلوك ليس مُستغرباً ، إذ أن الزواج كان يتم غالباً لاعتبارات عائلية وليس على أساس العواطف الشخصية للزوجين . ولا يبعد أن تكون عقوبة الزنا الصارمة التي فرضتها الشريعة ، قد جعلت الممنوع يبدو مرغوباً فيه بنوع خاص .

إن أمثال هذه الحكايات وغيرها مما في كتب الأدب ، يمكن أيضاً اعتبارها دليلاً على أن عزل المرأة عن الحياة العامة لم يكن بنفس الصرامة في كل مكان وزمان ، كما يصوره الرحالة الأوربيون وكما تصوره كتب الأدب العربي المعاصر التي تصف مصر في مُستهلّ هذا القرن ، هذا على الأقل بالنسبة للطبقات العليا والمتوسطة .

واذا قرأنا في أحد المواضع من ألف ليلة وليلة أن : «وقد تعلمت القبح من أولاد مصر» (٢٣٤/١) وإذا جاء في حكاية زين الأصنام أنه «لم يستطع أن يعثر في القاهرة على فتاة بالغة العفة والحياء» (٢٢٩/٦*) ـ والحكايتان ترجعان فيما يُرجح الى عصر المماليك ـ ، فان ذلك من باب المبالغة ، وإن كان لا بد أنها تنطوي على شيء من الحقيقة . لقد أدرج قسم من الحكايات حول الزوجات الخائنات في الاطار الخارجي لقصة «كيد النساء» (١١٧/٣ وما بعدها) لتلقى بذلك تقديراً سلبياً ، ولتكون فيما يظهر عبرةً لمن يعتبر . وفي هذه القصة لا تنال الجارية الماكرة عقاباً ، مع أنها أرادت بدافع الانتقام أن يلقى ابنُ الملك حتفه . وفي حين أننا نألف في الأساطير الأوربية أن ينال مُرتكب الشر في نهاية الأمر ما يستحقه من العقاب ، نجد هنا ، وإن لم يكن دائماً ، استعداداً للعفو والمغفرة . فاعتقاد أن الانسان ليس مُخيّراً في أفعاله بقدر ما هو مُسيّر ، يُفضي الى التسامح والتغاضي (أنظر ١٨٦/٣) . وعلى ذكر هذا ، يؤخذ من قصة السندباد البحري أن هذا الاعتقاد في المكتوب والمقدّر على الانسان سلفاً ، لم يحُل دون اجتهاد الانسان وبذله الجهد ـ على الأقل في عصر ازدهار الاسلام ـ ، بل أنه نمّاه وشجّعه .

إن مبدأ فئة التجار الذي تنطُق به هذه الرواية ، ولعلها نشأت في البصرة إبّان القرن الثالث ، ينُصّ على أنه : «لا تعب دون مكافأة» ، وهو مبدأ يمكن أن يُعكس أيضاً فيكون «لا مكافأة دون تعب» . فمن كان جريئاً بحيث يخاطر بحياته ، ويتحلّى فضلاً عن ذلك بما يلزم من الصبر ، فان نصيبه آخر الأمر النجاح إن كان مقسوماً له ، كما يؤخذ ذلك من حكاية الصائغ حسن البري . وهي حكاية تألفت من عناصر متباينة أشد التباين . أما من خاب سعيُه ومُني بالفشل ، فان هذا الاعتقاد يحمله على الاقتناع بأنه لا ذنب له في إخفاقه ، لأن القدر لم يشأ غير ذلك . وقصة «قمر الزمان» التي نشأت في مصر في القرنين العاشر والحادي عشر ، تبين لنا كيف كانوا يقيّمون خُلُقياً حوادث الخيانة الزوجية في القرون المتأخرة . من ذلك أن الصائغ البصري العجوز يلوي عنق زوجته الشابة ، بعد إذ يكتشف خيانتها له مع عشيقها الشاب الجميل ، الذي كان يعتبره صديقاً له . هذا وتلقى جاريتها المذنبة معها نفس المصير . أما عشيقها القاهري الأصل ، والذي شاركها راضياً كل مخازيها ، ثم انسحب أخيراً من الأمر في جبن وعدم اكتراث ، فانه لا يسلم من الأذى فحسب خلافاً لعشيقته ، بل إنه يُكافأ بأن يتزوج فتاة أبرع حُسناً وأكثر جمالاً ، هي ابنة شيخ الاسلام . وفي الختام يُقارن بين القاهريات والحسناء البصرية الخائنة ، ثم يثبُت للقاهريات أنهن الممثلات الحقيقيات لأخلاق الزواج الاسلامي : «إن أبي لا زال يحكم عليّ ما دمت بكراً وحيث تزوجت فقد صار الحكم كله في يد بعلي فاني لا أخالفه» (٦٢٩/٤) ، «ومن ظن أن النساء كلهن سواء فان داء جنونه ليس له دواء» (٦٣٠/٤) .

وبهذا يختم القاصّ حكايته . ومع أنه يُخيّل إلينا أن القاصّ كان يحلو له أن يُسهب في تفاصيل الانحرافات الزوجية وانه أراد بذلك أن يُلبّي حاجة سامعيه الى شيء من الاثارة ، فان القصة تسعى الى أن تجد مُسوّغاً ، ولا بد ، للموقف الاستبدادي للرجل المسلم في القرون المتأخرة .

ولعل السبب في كثرة عدد القصص الفكاهية التي تدور على عدم وفاء النساء هو الميل الى التسلّي ببراعة النساء في كيدهن ، وبالفكاهة اللاذعة في حد ذاتها : وذلك لأن المجموعة تشتمل أيضاً على قصص حول زوجات يُعتبرن نماذج للوفاء . فلدينا طريفتان مسليتان وكأنهما قصتان تعلميتان حل نساء ذكيات ، يحاول أحد الملوك أن يصل إليهن فيُظهرن له قُبح فعله (٤٢٧/٢ وما بعدها ، ١١٧/٣٢ وما بعدها) . وفي قصة البدوي المُفتقر وامرأته الحسناء التي ينتزعها منه مروان ابن الحكم ، تثير الزوجة أيضاً إعجاب الخليفة الأموي معاوية الى حد أنه يريد الزواج منها . ولكنها ترفض السلطان والثراء وتتشبث بزوجها مُعلّلة ذلك

بقولها : «ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا بغدرات الأيام وأنا له صحبة قديمة لا تُنسى ومحبة لا تُبلى ، وأنا أحقّ من صبر معه في ضرّاء كما تنعمت معه في السراء» (٤٠٣/٣) .

ورفض زوجها أيضاً أن يستبدلها بـ « ثلث جوار نمو أبقار كأنهن أقمار» (نفس المرجع) وبالمال والأملاك . وقد كافأ معاوية ، المشهور بطيبته وحلمه ، هذا الوفاء بجائزة سنية ؛ ولا بد أن صنيع معاوية هذا قد أرضى شعور القاصّ وسامعيه بالعدالة والانصاف .

ومن العجيب حقاً أن يلعب بكثرة الحب العارم بين الرجل والمرأة مثل هذا الدور في قصص نشأت في مجتمع ، لم يكن تعدد الزوجات فيه هو القاعدة ولكنه كان على كل حال مُباحاً ، ومنتشراً بين الطبقات العالية ، مألوفاً فيها . ويذكرنا بعض هذا القصص بالشعر العذري الذي نشأ في القرن السابع . ولقد أصبح هذا النوع من الحب غير المُتحقق المثل الأعلى لمجتمع القصر في العراق ابتداء من القرن الثامن فصاعداً وقد كانت حقيقة التصور الخلقي عنده من نوع مغاير تماماً . ولهذا فاننا قد نتساءل فيما يتعلق بروايات الحب وأساطيره في ألف ليلة : أكانت هذه الروايات أو الحكايات ، تمثل تصورات خيالية وأماني كانوا يتمنوها ، أم أنها كانت نوعاً من الأدب المضاد . ونظراً الى أن الأمر يتعلق الى حد بعيد بقصص شعبي ، وأننا نعلم من كتب الرحلات في القرن الخامس عشر وما بعدها أن الزواج من واحدة كان هو السائد ، فلعلنا نذهب الى أننا هنا بصدد تصورات مثالية وتعبير عما كان يتمنى الناس . لقد كانت الحياة الأسرية في الطبقتين العليا والمتوسطة خاضعة تماماً لسلطان الأب طيلة قرون ، ونقف على التصور المثالي للزوجة المسلمة الصالحة في أبيات وردت بها قصة الجارية تودّد :

مَهما لحظتَ تَعلمت مـا تبتَغـي
وَحيـاً بـدُون إشارَة وبَيـان
واذا نَظَرتَ الى بـديـع جَمالها
أغنَـت مَحاسنهـا عن البُستان

وكذلك أخلاقيات أقصوصة السقاء وامرأة الصائغ (٣٩٨/٢ وما بعدها) تطابق التصور الاسلامي تمام المطابقة . ففي هذه القصة يقرب السقاء فجأة امراة الصائغ ، الذي خدم السقاء بيته في اخلاص طوال ثلاثين عاماً ، فتعتقد الزوجة بحق أن زوجها أيضاً فعل مثل ذلك مع امرأة أخرى وأن ما حدث لها هو العقاب العادل الذي فرضه القدر . وهي لا تدعو الله أن يغفر لزوجها فقط ، وإنما لها أيضاً مع أنها لا ذنب لها أبداً . ثم يختم القاص كلامه محذراً بقوله : «فينبغي للمرأة أن تكون مع زوجها ظاهراً وباطناً وتقنع منه بالقليل إن لم يقدر على الكثير وتقتدي بعائشة الصديقة وفاطمة الزهراء» (٤٠٠/٢) .

ويبدو من السائغ تماماً في مجتمع كان على المرأة فيه أن تحتجب وتستتر ،أن يكون سبب الحب العارم في بعض الأحيان نظرةً واحدةً أو أقل ، وكثيراً ما يكون مجرد صورة امرأة جميلة أو وصفاً لها . ويشهد بعض القصص أيضاً بأن كثيراً من النساء قد عرفن عن طريق إزاحة حجابهن أحياناً أن يبدين ما خفي من حسنهن ، وذلك ليحملن بعض الرجال على تحقيق رغباتهن أو أن يؤدوا ما يعهدن اليهم به من مهام وأمور .

والحب الذكي المتفاني الذي تكنّه المرأة للرجل في الأسطورة الألمانية له مثال مؤثر في قصة نساء الكرم . ذلك أنه حين طُلب اليهن أثناء الحصار الذي ضُرب على مدينتهن ، أن ينسحبن ويأخذن معهن أعز ما لهن ؛ نجد أنهن يحملن أزواجهن على ظهورهن إنقاذاً لحياتهم . وفي قصص ألف ليلة نجد مثل هذا الحب ، قبل كل شيء في قصص يصوّر العلائق بين جارية من الجواري ورجل من أحرار الناس . وقد كان وراء تلك القصص شيء من الحقيقة كما يتضح من كتب الأدب ، ابتداء من القرن التاسع فصاعداً ، حيث يُصوّر فيها تفوق حب الرجل لجاريته على حُبّه لامرأة حرة ، لا يجوز له أن يراها قبل الزواج ولو مرة واحدة . جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه «الأمة تُشترى بالعين وتُردّ بالعيب ، والحُرة غُلّ في عنق من صارت اليه» [٨] .

منمنمة من طراز اصفهان ، نحو ١٦٠٠ ، المكتبة الهندية بلندن .
كانت هناك نساء يتقن فنون الكتابة كأبرع الخطاطين . . وهذه المرأة الفارسية تكتب رسالة وتتحلى بحلى من اللؤلؤ ، وقد رفعت برقعها الأبيض الى الخلف .

منمنمة تركية ، نحو ١٦٤٠ ـ ١٦٥٠ ، المكتبة القومية بباريس .
انها تعزف على العود ببراعة ورقة ، بحيث تذوب القلوب من البهجة .

سيدة من مغل ، الهند ، القرن السادس عشر ، متحف جويم ، باريس

ومن أمثلة ذلك قصة نور الدين ، ابن التاجر ، ومريم صانعة الأحزمة ، إبنة احد ملوك الافرنج . وهي قصة تظهر ، لما فيها من كره للنصارى ، تأثير عصر الحروب الصليبية . فصاحب مريم يمنعها الحق في أن تختار بنفسها من يشتريها ، لأنها شفته من مرض شديد الوطأة . ولما كان هذا كثير الورود في المجموعة ، فلا بد أنه يعكس أوضاعاً حقيقية . وكل من أراد شراء مريم من الشيوخ أو أصحاب الملامح القبيحة ، هجته بأبيات لاذعة موجعة ، فضحت فيها عيوبه البدنية . وفي آخر الأمر تطلب الى الشاب الجميل نور الدين أن يمتلكها . ثم أنها لا تصبح له حبيبة وربة بيت فحسب ، وإنما تنهض أيضاً باعالته . ففي الليل ، عندما يخلد الى النوم ليستجم من الحب ، تطرز هي أحزمة رائعة ، ليبيعها في اليوم التالي في السوق . وهي تعمل فيما بعد ربّاناً لسفينة ، لأنها : كانت قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب في البحر المالح وتعرف الأهواء كلها واختلافها وتعرف جميع طرق البحر » (٢١٨/٤ وما بعد) . وتقتل في غير رحمة كل المطاردين ، وفيهم اخوتها أيضاً ، الذين تعقّبوها هي وحبيبها نور الدين في جيش جرّار ليقتلوهما . إنها تضحك في عطف وتسامح عندما يجيبها نور الدين على طلبها إليه بأن يساندها في القتال بقوله :

« إن ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال » (٢٤٢/٤) . ثم يعلن بكلام مكشوف عن أي نوع من « الطعن » أحبّ الى نفسه .

ان الجارية الحسناء الذكية صاحبة الثقافة المتعددة الجوانب ، والتي حظيت بأسنى مكانة في قصور الأعيان في القرنين الثاني والثالث كلما ازداد ابتعاد المرأة الحرة عن الحياة العامة ، إن هذه الجارية يمكن عدّها واحدة من الشخصيات النمطية في ألف ليلة وليلة وأشهر أمثلتها في المجموعة هي « تودد » في القصة التي تحمل اسمها . ومنشأ هذه القصة العراق في القرن الثالث على ما يرجح وقد عرفت أيضاً طريقها الى الأدب الاسباني . والجارية تودد تنقذ أيضاً سيدها من الفقر والضياع بحكمتها وجمالها. وقد كان صاحبها ابن أحد التجار الأثرياء ، فبدّد ماله واستسلم لليأس . فنصحته بأن يذهب بها الى هارون الرشيد ويعرض عليه أن يشتريها بعشرة آلاف دينار . ولم يكن بدّ من أن تجتاز امتحاناً تثبت فيه عملها ومعارفها أمام طائفة من أشهر علماء ذلك العصر . فيتبين لهم أنها موسوعة في العلوم الاسلامية للعصور الوسطى ، من نحو وشعر وشريعة وتفسير وبلاغة وفرائض وخطابة وأخبار الأوائل وفلسفة وطب وهندسة وقياس الأرض وفلك . ويتضح أنها ليست متفوقة في كل هذه المعارف فحسب ، بل هي أيضاً بارعة في لعب النرد . وأخيراً تسحر ألباب السامعين بغنائها وضربها على العود . غير أن خاتمة القصة تُطلعُنا على معايير التقييم الاجتماعي : فسيّدها الجاهل يتقاضى مائة ألف دينار ثمناً لها ، وتُردّ هي نفسها إليه نزولاً على رجائها كهدية سخية من الخليفة وتصبح نديمة له . أما هي ذاتها فتُكافأ بخمسة آلاف دينار .

أما مثال جواري أسر الطبقة المتوسطة فمرجانة التي جمعت أيضاً بين الذكاء والجمال . وهي البطلة الحقيقية لقصة « علي بابا والأربعين حرامي » ، إحدى القصص المصرية المتأخرة . ان هذه القصة التي ليس بها من العناصر الخارقة للطبيعة سوى الجملة السحرية « إفتح يا سمسم ! » ، والتي تأسرنا ببنائها المنطقي ، ليست أصلاً مجرد قصة الفقير الذي يصيبه الثراء على نحو مُعجز عجيب ؛ بل إنها قصة الأوغاد الذين يجدون من يلقّنهم درساً ، ولكنه ليس الرجل الطيب الفقير ، وإنما جاريته الذكية . ومغزى القصة ، على ذلك ، أن مكر النساء ودهاءهن يقهر حيل الرجال ويُبطلها . فمرجانة تخدع اللصوص وتضللهم بأن تنقش علامتهم على أبواب الجيران أيضاً ، وكونها تخيط جثة الأخ الطماع أساس لاستمرار أحداث القصة وهي تعد لذلك إعداداً طيباً ، فتُشيع أولاً أن الأخ مريض ، وتبتاع لذلك أدوية ملائمة . ودون أن تطلب عوناً من أحد أو تُولي أحداً ثقتها ، تقتل غير هيّابة ولا خائفة ٣٧ لصاً . ولعلّ

الوحشية التي تم بها ذلك لم تُفزع السامعين في ذلك الزمان ، ولم تعدُ الوسيلة التي تصدم به الروايات البوليسية الحديثة قرّاءها. وبعد أن فرغت مرجانة مما فعلته تُطلع سيدها على الأمر في حذر ، مهدّئة من روعه ، وفي خلال ذلك تنعشه بحساء أعدّته بنفسها . وهي أيضاً التي أفسدت الحيلة الجديدة لشيخ اللصوص ، إذ هي الوحيدة التي ساورتها الشكوك عندما أبى أن يأكل الملح في بيت علي بابا ؛ والملح علامة الصداقة بين المُضيف وضيفه . وهي تعرف بما لها من تنوع الجوانب ، كيف تأسر الضيف برقصها مرتدية ثوباً يبرز مفاتنها ، ثم تقتله في غير خوف أو وجل . وكما هو الحال في القصة البوليسية ـ وكذلك أيضاً في الحكاية تنتهي الأحداث نهاية سعيدة : فبعد أن ينال الأشرار ما يستحقون من عقاب ، تُزوّج مرجانة من ابن علي بابا ، مكافأة لها على وفائها واخلاصها . ومعنى ذلك أنها تصعد على السلّم الاجتماعي بخطوة واسعة .

ومثل تودد في الجمال وتعدد المواهب والبراعة الجارية «قوت القلوب» التي تظهر في هذه الحكايات أكثر من مرة . فهي في حكاية خليفة الصياد والخليفة الصائد توصي أحد أغنياء التجار خيراً بالصياد العشيم فتقول : لا تؤاخذه فانه رجل عامي (١٨٧/٤) .

ومن المؤكد أن دور الوسيط الاجتماعي الذي قامت به الجارية ليس مجرد صدفة ، لأن في ألف ليلة شواهد على أن مثل هؤلاء الجواري كن خاضعات لأمزجة أصحابهن ، على الرغم مما لهن من ذكاء وجمال خلاب . وهكذا كان تعاطفهن مع المظلومين اجتماعياً أشد من تعاطفهن مع الطبقة العالية . وقد كانت الغاية من تعليمهن هو مسامرة هذه الطبقة العالية وتسليتها . هذا وتبين المجموعة أيضاً بأنه كان ثمة نساء حرائر ، اشتغلن بمسائل العلم في عصرهن وبعلوم الدين ، ولم يكن ذلك لداعي المسامرة والمنادمة في القصر فقط ، ولكن من أجل العلم ذاته أيضاً . فيخبرنا القاصّ عن امرأة هي «سيدة المشايخ» بقوله أنه لم ير امرأة : «أذكى خاطراً وأحسن فطنةً وأغزر علماً وأجود قريحةً وأظرف أخلاقاً» .

وقيل ان هذه المرأة كانت تعظ الناس في حماة بالشام في القرن السادس من فوق المنبر . وتضطر هذه المرأة الى أن تخوض نقاشاً حول فضائل الجنسين ، وتنتهي بالتركيز على أيهما يفضل الرجل من الناحية الجنسية ، الغلام أم الفتاة ؛ فتحتج للأخيرة محققة بذلك نصراً باهراً (٤٥٦/٢ وما بعدها) .

ان عشق الغلمان في أصله غريب عن العرب ، ولكن سرعان ما تسرّب الى عالم الاسلام من بلاد الروم والفرس . والمناقشة العلمية الكاذبة حول هذا الموضوع تبدو للقارىء المعاصر وكأنها نوع من المحاكاة الساخرة أو العابثة للطرق العلمية فى ذلك العهد . ولا نشك فى أن طائفة كبيرة من أهل البلاط كانت تدافع عن وجهة النظر المخالفة . . ويُشبه هذا النقاش طرائف تتنازع فيها جاريتان أو ثلاث قضاء ليلة حمراء مع الخليفة هارون الرشيد ، فيستشهدون في كلامهن بأحاديث نبوية ، مقلدات في ذلك طريقة الجدل التي جرى عليها علماء المسلمين في ذلك الحين ، وذلك على نحو يُعدّ اليوم بمثابة كاريكاتير ماجن (٣٩٢/٢) .

ويرد ذكر ملكة سبأ دون أن تُوصف بوصف يحط من شأنها . وورد فى مسند أحمد حديث نصه «لن يفلح قوم أسندت أمرهم الى امرأة» .

ونقرأ عدداً من المرات في ألف ليلة عن ملكات ذكيات عادلات ، كما لا يكون إلا في الأساطير . من ذلك مثلاً ابنة الملك بدور ، التي يختفي زوجها قمر الزمان في ظروف غامضة أثناء قيامه ببعض الأسفار . وحتى لا تضطرب الحاشيةأو يستبد بها القلق ، ترتدي بدور ثياب الملك وتمثل شخصيته . وفي قصة قمر الزمان هذه التي

عاشقان وخادمة ، فارسي ، عصر قاجار ، مطلع القرن التاسع عشر .

يبدو أنها نشأت في عصر متأخر بمصر ، تضم بدور مملكة أخرى الى مملكتها وبعدها نسمع : «وجلست على كرسي المملكة وطلعت اليها الأمراء وجميع الروساء وأرباب الدولة وهنئوها بالملك وقبلوا الأرض بين يديها ودعوا لها فتبسمت وأقبلت عليهم وخلعت عليهم وزادت في إكرام الأمراء وأرباب الدولة واقطاعهم والجيوش فأحبّوها ودعوا لها جميع الخلق بدوام الملك وهم يعتقدون أنها ذكر فأمرت ونهت وحكمت وأطلقت من في الحبوس وأبطلت المكوس ولم تزل قاعدة في مجلس الحكومة الى أن دخل الليل» (٨٨١/١) وهكذا كان تصوّر الشعب للحاكم العادل .

كانت بنات الأمراء يُعتبرن بصورة عامة أعلى شأناً من أزواجهن الذين لم يرتفعوا الى المراتب العالية إلا عن طريقهن . وهذا ما وصفه لنا الرحالة الأوربيون فيما يتعلق مثلاً بفارس في عصر الصفويين أو تركيا العثمانية . فانزال المرأة اجتماعياً عن درجتها كان الى حد ما أمراً مرتبطاً بانتمائها الطبقي .

وابنة الملك التي فاقت في ذكائها من يحيط بها من الرجال ، نجد لها مثالاً في قصة معروف الاسكافي الفكاهية ، وفي قصة الأختين اللتين تحسدان أختهما . وهنا نجد أن الشبان الذين أنقذتهم هذه الأخيرة بشجاعتها وحصافتها ، يعهدون اليها بالقيادة في رحلة عودتهم . ولكنها تجيب بروح اسلامية : «يا سادتي ، لا يجوز لي وفقاً للشريعة أن أتقدمكم ، ولكن ما دمتم قد أمرتموني ، فليس لي إلا الطاعة» (١٩٣/٥*) .

ونقرأ في عدة مواضع من ألف ليلة (منها ١٦٩/٣ وما بعدها) أن الأميرات كثيراً ما يدققن في الاختيار ويشترطن ألواناً من الشروط عندما يتعلق الأمر بمن سيتزوجن منه . وهن على الجملة يأبين الخضوع لسلطان الزوج .

ولا بد أن عدداً من القصص بدت لسامعيها وكأنها صور لعالم مقلوب في تلك العصور الوسطى التي كانت فيها سلطة الأب في الأسرة وسيطرة الرجل في جميع نواحي الحياة تقريباً أموراً طبيعية . ولا يبعد أن تكون هذه القصص قد حفظت لنا بقايا من مظاهر نظام الأمومة ، على ما كان موجوداً قبل دهر طويل في الشرق الأدنى ففي جزيرة العرب كانت لا تزال آثار من نظام الأمومة قائمة حتى عصر النبي .

وثمة حكاية من بلد تحكمه امرأة وتشغل فيه النساء وظائف الوزراء والقضاة ، ومن يعين قواد الجيش والجند . وفي ذلك البلد ينهض الرجال بأعباء الزراعة فيحرثون ويبذرون ويحصدون ويشتغلون بعمارة الأرض وعمارة البلاد ومصالح الناس من سائر الصناعات .

ومع ان هذه الأوضاع لم تكنْ من الأمور الواقعة ، إلا أنها تدخل في نطاق المتصوّر[١٧] ان جزر واق الواق – وهي التسمية العربية في العصور الوسطى لجزر اليابان – التي يصل اليها البطل الأسطوري حسن البصري ليسترد زوجته الغائبة ، لا يحكمها الا النساء ، وقد عرف هذا الزعم سبيله الى مؤلفات العرب في وصف البلدان . وكذلك عرفت الحكاية الشعبية صوراً أخرى من الأوتوبيا الاجتماعية .

فحكاية الأمير أحمد والجنية الجميلة پري بنو ، وهي حكاية فارسية الأصل على ما يُحتمل ، تعبير عن الشوق الى تحرير المرأة ، الذي لم يتحقق بعد ذلك بعدة قرون على حد سواء في كل مكان . ففي عالم الجن الذي تنتمي اليه پري بنو ، تتمتع الفتاة بحرية اختيار شريك حياتها على وفق هواها لا هوى أبويها ؛ ولذلك تصبح الزيجات هنالك سعيدة موفّقة ، بخلاف نظائرها في عالم الأنس . ففي عالم الجن تستطيع الفتيات أن تصارح الرجل الذي تهواه بغرامها ، دون أن يُفرض عليها الانتظار الى أن يخطب ودّها «٣٧/٣ وما بعدها حسب ترجمة ليتمان) .

وتظهر في الف ليلة وليلة كائنات تفوق قدرتها طاقة البشر وجنيات طيبات وأخرى شريرات على ما هو مألوف

أم وطفلها ، من عمل الفنان التركي اسمعيل جو بان (من مواليد عام ١٩٤٥) .

في كل الأساطير عند سائر الأمم . وفي حين أن النساء اللاتي يتمتعن بقوى سحرية ويتعاطين السحر والشعبذة في الأساطير الأوربية ، عجائز بلغن الغاية في القبح وبشاعة المنظر ، فاننا غالباً ما نجدهن في ألف ليلة شابات جميلات ذوات فتنة وإغراء يُثرن الشهوات ويشتهين .

وتعتبر العجائز على الخصوص داهيات ، واسعات الحيلة ، لا سيما اذا قمن بدور الخاطبة ، ولعل مرجع ذلك أيضاً الى تمتعهن بحرية الحركة الى حد بعيد نظراً الى سنهن . وهن يستخدمن مكائدهن لمصلحة شخصيات الحكاية وخيرهم ، حتى وان كانت اسماؤهن تؤذن بالشر والأذى ، مثل «شواهي ذات الدواهي» ، مضافاً الى ذلك أمر يكاد يكون نذير سوء ، وهو أنها ذات عينين زرقاوتين (عمر بن النعمان ، حسن البصري) . على أنه توجد أيضاً الزوجة العجوز السيئة الخلق ، أعني بذلك زوجة معروف الاسكافي ، التي يُنم عليها اسمها ، وهو «فاطمة العرّة» . فهي لا تضرب زوجها الطيب فحسب ، وانما تكيل له التهم ظلماً وعدواناً ثلاث مرات عند عدد من القضاة الذين يضطرون الى الاصلاح بينهما . ويُصلح أحد هؤلاء القضاة بينهما بكلام يمثل التصوّر الاسلامي لوضع الرجل والمرأة في الزواج . وقال «يا حرمة أطيعي زوجك ، وأنت يا رجل ترفّق بها» (٦٨٠/٤) .

وتبين كذلك هذه الحكاية أن المرأة لم تكن بدون من يحامي عن حقوقها . فقد كان بوسعها ، كما يتضح هنا ، أن تستعين بالقاضي على زوجها دون أن تُلزم باحضار شهود على دعواها . وهذا ما تؤيده أيضاً مشاهد من مقامات الحريري .

وثمة حديث نبوي أدخله جوته مع تغيير يسير في ديوانه الشرقي الغربي [١٠] ، ونص هذا الحديث هو «استوصوا بالنساء خيراً فان المرأة خلقت من ضلع وان أعوج شيء في الضلع اعلا ، قال فان ذهبت تُقيمُه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً» . وهذا موقف يعلو على المناقشات التي كانت لا تزال دائرة في جامعة ڤيتنبيرج في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد حول اذا ما كانت المرأة كائناً انسانياً على الاطلاق [١٢] .

من المؤكد أن حكايات ألف ليلة لم تصور أصداء المواقع فحسب وانما مثلت أيضاً أماني وأحلاماً تتوق الى التغلب على الحاجة والضيق وكذلك على بعض التقاليد التي فرضتها عوامل مختلفة . وصورة المرأة في هذه المجموعة مطبوعة جزئياً فقط بطابع الرفض واستعلاء الرجل . وتبين لنا النساء الكثيرات اللاتي تمتعن بالذكاء وسعة الحيلة ، أنه قد وُجدت حتماً نساء كان لهن من عزم الرجال ما كفل لهن أن يفرضن أنفسهن ، وان الرجال لم يقابلوا هذا بالتسامح والتغاضي فحسب ، بل أنهم قبلوا ذلك بنفس راضية .

فلا غرو أن تلقى هذه المجموعة منذ عدة عقود والى اليوم تقديراً كبيراً في الشرق . وقد كانت شخصية شهرزاد الذكية مصدر وحي لبعض الكتاب مثل توفيق الحكيم وطه حسين . وقد أطلق الكاتب المصري يوسف الشاروني على ما انتخبه من قصص الكاتبات المصريات وأصدره في القاهرة سنة ١٩٧٥ اسم «الليلة الثانية بعد الألف» رابطاً هذه المختارات ربطاً واعياً بالمجموعة المشهورة ، وفي المقام الأول بالشخصية الرئيسية للحكاية الخارجية ، مع أن أكثر ما انتخبه ليس بينه وبين الحكايات الأسطورية سبب ، وانما هي قصص تنقد نقداً مرّاً أوجه التقصير الاجتماعي في وضع المرأة المصرية المعاصرة .

هذا والمثال العراقي محمد غني ، الذي يُعنى عناية بالغة بتحرير المرأة العراقية قد أقام في احدى الساحات الحديثة ببغداد ، تمثالاً للجارية مرجانة ، وهي بجلاء تدبيرها وقوة شكيمتها البطلة الحقيقية لحكاية علي بابا والأربعين حرامي .

الهوامــش

١) أخذت الشواهد كافة من طبعة ألف ليلة وليلة لوليم مكناطن ج ١ ـ ٤ ،
كالكتا / لندن ١٨٣٩ ـ ١٨٤٢
* نقلاً عن الترجمة الألمانية لأنو ليتمان

٢) أنظر :

Coupe, W. W.: The German illustrated broadsheet in the seventeenth century. Vol. I. Baden-Baden 1966. (Bibliotheca Bibliographica Aureliana XVIII). S. 55

٣) أنظر :

Goldziher, I.: Adab, in: Enzyklopaedie des Islam. Bd. I/1913, S. 129

٤) كتاب الفهرست . أصدره غ . فلوغل ، لايبزيج ١٨٧١ ، ص ٣٠٤

٥)

Göttingisches Magazin der Wissenschaften und Literatur II/1781, S. 305

٦) المتقي الهندي : منتخب كنز العمال . على هامش : أحمد بن حنبل : مسند .
مصر ١٣١٣ . ج ٢ ، ص ٤١١

٧) المكان نفسه

٨) ابن عبد ربه : كتاب العقد الفريد ، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين ، ابراهيم الأبياري وعبد السلام هارون ، ج ٦ ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص . ١٢٩

٩) أحمد بن حنبل : مسند ، مصر ١٣١٣ ، ج ٥ ، ص . ٤٨ ، وانظر نفسه ج ٥٠ ، ص . ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١

١٠)

Goethe, J. W.: Westöstlicher Diwan. Hgb. u. erl. v. E. Beutler. Leipzig 1943. (Sammlung Dieterich Bd. 125), S. 41:

Behandelt die Frauen mit Nachsicht !
Aus krummer Rippe ward sie erschaffen,
Gott konnte sie nicht ganz grade machen.
Willst du sie biegen, sie bricht;
Läßt du sie ruhig, sie wird noch krümmer;
Du guter Adam, was ist denn schlimmer ? -
Behandelt die Frauen mit Nachsicht:
Es ist nicht gut, daß euch eine Rippe bricht."

١١) البخاري : كتاب الجامع الصحيح . أصدره ل . كريل . ليدن ١٨٦٨ ،
ج ٣٠ ، ص . ٣٣١

١٢)

Hoeltich, F. H. u. J. C. Waltz: Quaestio. Foemina non est homo videbunt publice in Auditiorio Jetorum a. D. XIV. Decembris Anno 1672. Nunc recusa. Wittebergae 1678

المراجـع

Gerhardt, M. I.: The Art of Story-Telling. A literary study of the Thousand and one nights. Leiden 1963

Heller, B.: Das hebräische und das arabische Märchen, in: Bolte, J. und G. Polivka: Anmerkungen zu den Kinder- und Hausmärchen der Brüder Grimm. Bd. IV. Leipzig 1930, S. 315-418

Kahlo, G.: Die Wahrheit des Märchens. Halle (Saale) 1954

Leyden, F. von der: Die Welt der Märchen. Bd. I, II. Düsseldorf 1953, 1954

Littmann, E.: Alf laila wa-laila, in: The Encyclopedia of Islam. New Ed. Vol. I. Leiden, London 1960

Littmann, E.: Zur Entstehung und Geschichte von Tausendundeiner Nacht, in: Die Erzählungen aus den tausendundein Nächten. Vollständige deutsche Ausgabe in sechs Bänden... übertr. v. E. Littmann.
3. Aufl. Leipzig o. J.. Bd. VI, S. 641 - 728

Oestrup, J.: Studien über tausendundeine Nacht. Aus dem Dän. nebst einigen Zusätzen v. O. Rescher. Stuttgart 1925

Rescher, O.: Studien über den Inhalt von tausendundeiner Nacht, in: Der Islam IX/1918, S. 1-94

لوحات مقال ڤالتر ڤيبكه مأخوذة جزئياً من كتاب المؤلفة «المرأة في الاسلام» ، الذي نشر في العام الماضي بليبزج ، وهذا العام بدار نشر كولهمر ، شتوتجارت ، وهو دون شك من أفضل الكتب العلمية المؤلفة في هذا الموضوع .

جان ماريك

الشعر الأوردي المعاصر
تصوير الواقع في شعر فيض احمد فيض

ليس فيض أحمد فيض ـ الذي بلغ سن السبعين عام ١٩٨١ ـ أكثر شعراء اللغة الأردية شعبية في الهند والباكستان فحسب، بل هو أيضاً أعظم شعراء الأردية المعاصرين ومن أعمقهم تأثيراً، وهو بالمثل شخصية بارزة من شخصيات الحياة العامة في الباكستان. هذا وقد حاز فيض عام ١٩٦٠ على وسام لينين للسلام، وهو وسام نادر لا تمنحه حكومة الاتحاد السوفيتي عادة إلا للفنانين التقدميين من أبناء البلدان النامية.

ولد فيض [١] بمدينة سيالكوت الشمالية في عام ١٩١١، ونشأ في اقليم البنجاب الذي لم يكن قد تخطى بعد حدود النظام الاقطاعي، وكان أسلافه من الفلاحين. غير أن والده ـ الذي اتسم بالعزم والقدرة ـ انتقل الى أفغانستان قبل مولد ابنه فيض، وتقلب هناك في المناصب الى أن أصبح مديراً للادارة المدنية. ولكن الاصلاحات التي قام بها أثارت الحسد في نفوس رجال البلاط، فاضطر الى التسلل من كابل هارباً في ثياب التنكر. ثم سافر الى انجلترا لدراسة الحقوق في كامبريدج ولندن وعاد في ختامها محامياً الى الهند.

لم يقتف فيض أثر والده ويحذو حذوه، ولم يرحل الى أوربا للدراسة في المعاهد العليا هناك. وانما تلقى تعليمه في المعهد التبشيري الاسكتلندي العالي ودرس بصفة خاصة العربية والفارسية والأدب. وبعد اختتام دراسته المتوسطة في مسقط رأسه أرسله والده الى لاهور، عاصمة البنجاب لتلقي دراساته العليا في اللغة العربية والانجليزية. وما لبث أن حصل على مرتبة «ماستر أوف آرتس» (أستاذ فنون) وعُين في كلية الدولة، ثم انتقل الى أمريتسار حيث عمل محاضراً للغة الانجليزية في عام ١٩٣٤، ثم عاد فيما بعد الى لاهور، مركز الحياة الأدبية النشطة، وشرع في التدريس بكلية التجارة «هايلي كوليج». وفي عام ١٩٣٦ انضم الى فريق الكتاب الماركسيين الذين مهدوا تحت زعامة سياد زهير لتأسيس اتحاد الكتاب التقدميين لعموم الهند [٢]. وفي الوقت الذي كان فيه القسم الأكبر من أدباء اتحاد كتاب الأردو دون روابط مباشرة بالطبقات العامة، قام فيض بتوثيق صلاته بالطبقات الكادحة. فقام ـ ولربما لأول مرة في تاريخ الهند ـ بتنظيم صفوف أكثر العمال تعاسة وشقاء وأسس لهم نقابات عمالية. ولا تزال تدين له «نقابة الحمالين» و«عمال اليومية»، و«العمال غير المدربين» بالفضل الكبير للجهود الجبارة المتواصلة التي بذلها في سبيلها. ولم يكن هذا كل شيء بل أنه عمد الى تعليم المقلين الذين يشكون من الفقر المدقع، القراءة والكتابة، وتناقش معهم في مسائل الماركسية الأولية.

خلال السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية تخلى فيض عن العمل في المدارس وانخرط في جيش المستعمرات البريطاني، وما عتم أن رقي الى مرتبة ملازم أول في مديرية العلاقات العامة في الجيش البريطاني الهندي. ثم أنعم عليه بوسام «الامبراطورية البريطانية» مكافأة له على الجدارة التي أبداها ابان الحرب.

بعد تقسيم الهند أصبح فيض من مواطني الباكستان، فتخلى عن الوظائف العسكرية وانصرف الى الصحافة وأصبح رئيس تحرير «باكستان تايمس» الصادرة بالانجليزية، وأصدر في لاهور صحيفة «امروز» (اليوم) اليومية باللغة الأردية. كان أمل فيض أن يقوم تنظيم الدولة الجديدة على مبادىء العدالة الاجتماعية ولكنه ما لبث أن تبين خيبة آماله، لا من جراء أعمال القتل الجنونية وأعمال السلب التي رافقت عملية

التقسيم فحسب ، وانما لما انطوت عليه قوانين الدولة الجديدة ذاتها من اجحاف ، فقد كان هدفها الأول هو تأمين الرخاء والعيش الرغد لملاك الأراضي ولرجال الصناعة دون سواهم .

في تلك الآونة ازداد انجذابه الى الحزب الشيوعي . وبدأ كفاحه من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية لمواطنيه . وأصبح نائباً لرئيس اتحاد نقابات العمال الباكستاني ، وذلك حتى يستطيع من هذا المركز الدفاع عن مصالح الطبقات الكادحة بصورة أشد وأمضى . وفي تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٤٩ قام بتنظيم المؤتمر الأول للكتّاب التقدميين ، ثم قام بعد عام من ذلك بتأسيس حركة السلام الباكستانية . وفي عام ١٩٥٠ أصبح الأمين العام للجنة السلام الباكستانية ثم أصبح في عام ١٩٥٠ عضواً في مجلس السلام العالمي .

وفي عشية الانتخابات العامة الأولى التي أجريت في البلاد في مارس ١٩٥١ اتهم رئيس وزراء الباكستان «لياقت علي خان» الحزب الشيوعي (الذي كان يقوم بنشاطه رسمياً في ذلك الوقت ، وان كان يخضع باستمرار لرقابة الدولة) ، بأنه يدبر مؤامرة لاسقاط الحكومة بمساعدة بعض ضباط الجيش الباكستاني . وعلى أثر ذلك ألقى القبض على سياد زهير ، السكرتير العام للحزب الشيوعي ، وعلى أحمد فيض ، وعلى اللواء أكبر خان ، أركان حرب الجيش الباكستاني ، والرائد محمد اسحاق ، سكرتير الحزب الشيوعي الباكستاني وغيرهم من الضباط الآخرين بتهمة تدبير مؤامرة عسكرية [٤] في راولبندي .

أمضى فيض الأشهر الثلاثة الأولى من اعتقاله في السجن المنفرد في سجون ساركودا وليالبور . وخلال هذه الفترة لم يسمح له بمطالعة كتب أخرى غير القرآن الكريم .وفي حزيران ١٩٥١ نقل الى سجن الفرقة في حيدرآباد حيث منح هناك جانباً أكبر من الحرية ، إلا أنه أمضى هذه الفترة وهو مهدد بتوقيع عقوبة الاعدام عليه في أي وقت . وانتهت المحاكمة التي أجريت في كانون الثاني ١٩٥٣ بالحكم على جميع المتهمين بالسجن لمدد مختلفة . وتم في العام الذي أعقب ذلك منع الحزب الشيوعي من مباشرة نشاطه في جميع أنحاء الباكستان . ونقل فيض بعد استياء صحته الى مستشفى جناح بكراتشي للمعالجة ثم استبقي في سجن مونتجامري فيما بعد ، حيث تمتع بحريات كبيرة نسبياً ، فكان يقضي وقته في العناية بأزهار الحديقة ، كما شرع في تعلم اللغة الفرنسية . وأخيراً أطلق سراحه بعد أربع سنوات وذلك عام ١٩٥٥ .

بعد الانقلاب العسكري الذي قام به أيوب خان عام ١٩٥٩ اشترك في المؤتمر الذي عقد للكتاب الآسيويين والافريقيين في طشقند ، ومن جديد ألقي القبض عليه بعد عودته من الاتحاد السوفيتي ولكن أخلي سبيله هذه المرة سريعاً مع شيء من التكريم والحفاوة . وفي عام ١٩٦٢ تلقى دعوة من موسكو وأنعم عليه هناك بوسام لينين للآداب اعترافاً بالنشاط الذي أبداه في صالح التقدم الاجتماعي والسلام العالمي .

في السنوات التالية ازدادت الروابط بينه وبين النظام القائم . فتقلد منصب مدير كلية عبد الله هرون في كراتشي ، وعمل كمستشار ثقافي للحكومة الباكستانية ، وعُين عام ١٩٦٠ أميناً للمجلس الفني الباكستاني بلاهور ، وعام ١٩٧٢ رئيساً للمجلس القومي الباكستاني للفنون في اسلام آباد . وقام في هذه الفترة برحلات واسعة زار خلالها الكثير من البلدان وعاش هذه الحقبة من حياته كشخصية هامة ، ومع ذلك فقد ظل «شاعراً» قبل كل شيء .

خلال حقبته الرومنتيكية الأولى من محاولاته الشعرية التي تضمنتها مجموعة **نقس فريادى** (الشكاوي ١٩٤٣) كتب فيض أشعاراً في الغزل تسيطر عليها روح الأدب الفارسي الكلاسيكي ، الا أنه نظم قصائداً أخرى أكثر أهمية تعبر عن ايمان انساني ديمقراطي حقيقي بانتهاء الحرب بجانب الحق والعدالة . واستهدف بهذه الاشعار بعث الشجاعة في نفوس القادة السياسيين في وطنه لكي يكسبوا ثقة قوى الشعب الخلاقة فتستغل انتصار الديمقراطية لبلوغ الاستقلال السياسي .

وفي مجموعته الثانية ، **دست صبا** (يد الصبا ، ١٩٥٢)

«ملك القلوب» .
لوحة زيتية من الباكستان ، من عمل الرسام الخطاط صادقين .

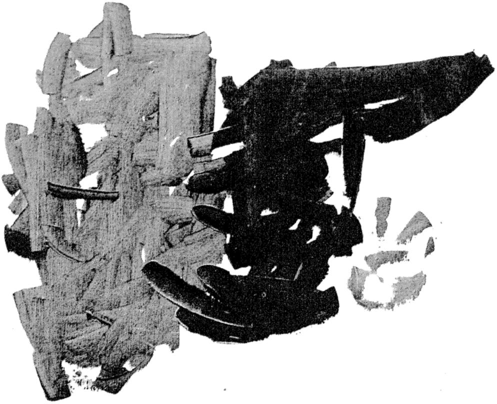

لوحة زيتية من الباكستان ، من عمل الفنان الباكستاني كامل خان ممتاز (مو مواليد كلكتا عام ١٩٣٩) .

يتوقف فيض عن النظر الى العالم بعيون رومنتيكية ويعبر عن استيائه العميق لوضع العالم الراهن . ومع تعلقه الكبير بوطنه فان عواطفه تقف الآن بصورة عامة بجانب كل الشعوب المضطهدة في افريقيا وآسيا .

أما الأشعار التي نظمها في سجنه وتم نشرها في مجموعة زندان نامه (رسائل من السجن ، ١٩٥٦) فتعبر ـ بجانب تأملاته لما عاناه ولما وقع عليه من حيف ـ عن ايمان راسخ بانبهاء النضال في سبيل الحرية بخاتمة سعيدة ، كما تعبر عن عزمه على التغلب على كل كرب وضيق . ونجد أيضاً مثل هذه القناعات في كتبه الأخيرة **دست ته سنگ** (يد تحت الحجر ، ١٩٥٩) وساري **وادي سينا** (وادي سيناء ، ١٩٧١) . هذا وقد نشر فيض مقالاته النقدية في كتاب بعنوان **ميـزان** (التوازن ، ١٩٦٥) .

وفيض هو في الأصل شاعر عاطفي ، شاعر لواعج قلب الانسان الدفينة والروح الانسانية . الا أنه ليس بمجرد شاعر فحسب بل هو مواطن أيضاً يكرس الكثير من الوقت والجهد من أجل قضية تحرير الشعب . وأهم مواضيعه هو الكفاح الثوري ضد كل نوع من أنواع الاضطهاد والاستغلال ، ومؤازرة وتنشيط حركة التقدم الاجتماعي بكل معنى الكلمة ، والدفاع عن السلام ، والتحريض ضد الحرب . وهو بهذا المعنى كاتب واقعي يملك غريزة لا تخطىء في فهم الحقيقة والواقع . ولا يؤمن فيض بأي قدر مسبق محتوم ، بل بالعكس فانه يرى امكان تغيير هذا القدر بعمل الانسان ويدعو الى ذلك . وهو يدرك أنه يعيش في عالم حديث ويود معالجة قضاياه الملحة ، وحلها في أقصر وقت ممكن . وقد عبر عن قناعاته بالكلمات التالية :

«لقد كان الدرس الأول الذي تعلمناه هو أنه ليس في الامكان إعمال الفكر مع الانعكاف والعزلة عن بقية العالم ، اذ أن كل الخبرات والتجارب التي يصادفها الانسان في بيئته قد تضمنها هذا العالم ولا تنفصل عنه . والدرس الثاني هو أنه حقيقة في الامكان الانعزال عن بقية العالم ، ولكن مثل هذا العمل بلا أي فائدة ، اذ أن الشخص الانطوائي هو ليس الا بكائن صغير جداً لا أهمية أو شأن له بالرغم من كل ما يكنه من حب وبغض ، وكل ما يشعر به من سعادة وغم . أما مدى اتساع آفاقه فيتوقف على صلته الفكرية والعاطفية ببقية الخليقة ، وعلى الأخص بهؤلاء الذين يقاسمونه الأخوة البشرية» .

يؤمن فيض بقوة الكلمة الشعرية ، وتكاد تتجلى في كل بيت من الأبيات التي نظمها شاعريته الرقيقة ممزوجة بالحديث عن أكثر المعضلات الاجتماعية شدة . نعم انه يؤمن بأن من واجب كل شاعر مجيد اظهار جمال الحياة للآخرين . ويعمد في شرح هذه النظرة الى استخدام مجازات واستعارات ميرزا غالب الذي كتب في أحد أشعاره الغزلية بأن واجب الشاعر أن يتمثل في عينه نهر الدجلة في نقطة ماء واحدة . ويضيف فيض الى ذلك فيقول ان واجب الشاعر هو أن لا يتمثل النهر في نقطة ماء فحسب ، بل أن يطلع الآخرين على ذلك وأن يعرّفهم به ، في الفن وفي الحياة أيضاً . وبعبارة أخرى ان مهمة الشاعر عند فيض ليست الرؤيا والتأمل فحسب ، بل الكفاح وبذل الجهد أيضاً [٦] . ونود أن نضيف الى ذلك بأنه كان يرى أن أقوى وأعظم تيارات الحياة هي تلك التي يمثلها كفاح الشعوب الآسيوية والافريقية في سبيل الحرية ، والاستقلال ، والسلام .

وتمتد جذور شعر فيض البعيدة وتتغلغل تاريخياً في تقاليد أدب الأردو الديمقراطية التي تطورت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، في الوقت الذي كان يبعث فيه الشعراء الرومنتيكيون مثل الطاف حسين حالي ، ومحمد اقبال تحت تأثير الحركة القومية المتزايدة ، مشاعر الوطنية في شعب الهند . بدأ فيض في الكتابة عندما غادر استاذ ادب الاردو الأكبر ـ محمد اقبال ـ المسرح ، فتناول منه راية الطبقات المضطهدة وسبغ عليها حلة جديدة ، وأكسبها ألواناً جديدة . وتنطبع أشعاره كشعر اقبال بطابع الاستقامة والاخلاص ويتجلى فيها ميله الى وجهات النظر الفلسفية البعيدة . وكلا الشاعرين يستخدمان نفس الأشكال والمواد التقليدية ويولعان بالأساليب القديمة والصور الرمزية التقليدية . ومع ذلك فيجد ف . كيرنان فارقاً كبيراً بينهما في صبغة اشعارهما ، فاقبال يميل الى الاندفاع العاطفي ويهوى الهجوم ويتصف

بالصراحة ، أما فيض فيبدو أكثر رقة ويميل الى الايحاء ، أحدهما يرسم طبيعة ينتشر فيها نور الشمس ، والآخر يرسم طبيعة تظهر تحت نور القمر المسترسل في كـل مكان .

وبديهي أن الاشتراكية قد قدمت لفيض قيماً مغايرة وقيماً عملية تختلف عن فلسفة النهضة الاسلامية التي كان يحمل لواءها اقبال . كانا أفكاره أكثر ارتباطاً بعالم الواقع ، الا أن ذلك كان يزيد من صعوبة التعبير عنها فنياً ، وربما كان من الصحيح القول أن الخيال ينطلق مع الأوهام والأحلام ويلهث متعباً حين يعتمد على الحقائق والواقـع . ويبـدو أن هذا هو سبب إقلال فيض في الانتاج ، فهو لم يكتب سوى مجموعة محـدودة من الأشعـار . ويضعـه محمـــد صادق في لفيف الشعراء الذين **ينبعون فقط ولا يتدفقون** ويقول : «انه يفتش طويلاً في جيبه قبل أن يخرج منه قطعة نقود ، الا أن القطعة التي يخرجها في النهاية هي دائماً قطعة نقود جيدة» .

يملي شعر فيض العاطفي دائماً حبان عارمان : حبه «لامرأة خيالية» على غرار الشعر الفارسي الكلاسيكي وشعر الأردو ، ثم حبه الحقيقي لوطنه وللبشرية وتقدمها . لقد قام فيض «بتطوير تكنيك فذ بمعنى مزدوج ، وحد فيه بين الحـــب والسياسة في ازدواجية غريبة كما لو كان يتصور الحياة على شكلين متباينين ويسعى لذلك على الدوام الى ايجاد وفاق وانسجام بينهما» . . . يتنازع في نفس فيض وفقاً لأقوال ف . كيرنان تصوران : الفقير الجائع الذي يقضي نحبه من المرض على قارعة الطريق ، ثم الحبيبة الولهـانة ذات الجفون المصطبغة والخدود المغطاة بمسحوق الزينة ، التي تتأمل نفسها في مرآة الرومنتيكية الاقطاعية القديمة . هذان التصوران يمثلان قطبين مغناطيسيين متعاكسين للحياة كانا يجتذباه .

تحدد هذه التناقضات ، التي كانت تطغي على فيض ، أيضاً نظرته الى المشاكل العامة التي كانت تعترض طريق الحركة التقدمية في وطنـه : النزاعـات القائمة بيـن القديـم والجديد ، بين الشعور والعقل ، بين العمال والطبقات المفكرة ، بين الفرد والمجتمع . ويقول كيرنان في هذا الصدد : «لقد وجدت الثورة العالمية المتدفقة المنظمة طريقها الى نفسه ، ومن خلال ضغطها على حضارته الراسخة المعتدة بنفسها ولدت في وعيه ازدواجية وانقساماً ، عانا منهما» .

كانت تتجاذب فيض دائماً قوتان متعاكستان ، فقد كان على وعي تام بواجبه في مساعدة الشعب الجائع الذي يئن ويموت من الاستغلال والأمراض من جانب ، كما كان يشعر بالاندفاع الشعري المجهول الى التعبير عن عواطفه ، وتمجيد ذلك الحب والضني لتلك المعشوقة الظالمة حسب النهـــج الرومنتيكي القديم من جانب آخر . ويدّعي بعض نقاده بأن مساهمته في الحركة التقدمية قد أنقذته من الانكباب على ذاته واجترار مشاعره الشخصية ووضعته في جانـــب الجماهير . ومع ذلك فلو افترض جدلاً بأن ذلك صحيح فان أجمل نفحاته الشعرية هي تلك التي يعبر فيها عن نفسه أو عن أحبائه ويستشعر فيها مرارة الحياة . فهو يشعر بما يكدر الآخرين ويثقل كاهلهم شعوراً قوياً ، لأن ذلك الكدر يكدره هو نفسه ويثقل عليه . انه ذلك الاتصال الشخصي اللاواعي الذي انتج من خلاله أفضل أشعاره .

وأحياناً ما ينتقد البعض قسماً من شعره بحجة أنه شديد التقيد بالقديم وشديد الايغال في التجريد ، بينما ينتقد البعض القسم الآخر منه لصبغته التقدمية أو لافتعاله ـ كما يرون ـ التقدمية ولايغاله في السياسة . ولكن هذا النقد يحيد عن قارعة العدل والانصاف . إن شعر فيض لا يرفع عبارات الاعلان والترغيب الطنانة ، وانما يعبر عن عقيدة ثابتة . لا تنادي أشعاره بنظريات سياسية سافرة على سبيل الدعاية كما لا تترنم بتلك العاطفية الهشة الرخيصة التي استراح اليها غيره من الشعراء المعاصرين . ان ما يحركه هو الشيء الحقيقي الواقعي ، الشخصي ، وكل ما هو انساني جوهري . ومن الشيء المؤكد هو أن فيض يشتغل بقضايا عالمنا الحاضر الملحة ، الا أنه لا يطرح هذه القضايا بصورة مباشرة بل بصورة شخصية . انه لا يسعى الى الهدم ، لأنه يكره الهدم وكل نوع من الطغيان ، بل أنه يسعى الى ترسيخ ايمانه بالمستقبل والبشر .

ويجهد نفسه في الوقت ذاته في الحفاظ على قيم التقاليد القديمة واستخدامها في وضع شعر جديد ، وتكوين مجتمع

جديد . الا أن بقايا الماضي الاقطاعي التي تغلغلت في نفسه خلال الطفولة تظهر عن غير وعي منه في مسلكه ومنحى تفكيره . وتظهر تقاليد الماضي بصورة رئيسية في الشكل الخارجي من شعره . وهو لا يتخلى في شعره أبداً عن الاستعارات والرموز المطروقة ، كما لا يتخلى عن كنز التعابير الشعرية الكلاسيكية الفارسية الموروثة . ويستخدم الأنظمة الشعرية القديمة ومقاييسها ولا يستغني عن التركيب الايقاعي الثابت ، إلا اذا دعته لذلك ضرورة التعبير الدقيق عن أفكاره .

لم ينظم فيض أشعار الغزل في صورها التقليدية فحسب ، وانما نظم أيضاً قصائداً بأسلوب عصري حديث . هذا وقد استخدم اللغة الأردية الأدبية التي لا تربطها روابط كبيرة باللغة الدارجة المستخدمة في الحياة اليومية . وقد استخدمت هذه اللغة الأدبية المملوءة بالكلمات المأخوذة عن الفارسية والعربية في الشعر الغنائي في جميع الأزمنة ، وهي لغة لا يربطها بمنعكس الحياة الحقيقية الا الشيء القليل فقط . الا ان فيض تمكن بنجاح من التغلب على الشقة القائمة بين الأدب والحياة ، فقد كان يدرك بعمق شديد وظائف الغزل الأردي الاجتماعية .

وكان للغزل حسبما تطور في شمال الهند في مطلع القرن الثامن عشر وظيفة اجتماعية ثابتة وواضحة . ويقول ر . راسل : «لقد كان شعر الغزل عبارة عن شكل معتمد للاحتجاجات الحماسية على عالم قد نفي الشاعر والمستمعون فيه على السواء» . . . ولا شك أنه كان أكثر شعبية من جميع أشكال الشعر الأردي الكلاسيكية ، وكان له تأثير كبير على جميع الأشكال الأدبية الأخرى ، لأنه كان يملك قابلية تجاوب وانسجام ، مكنته من لعب دور هام في حياة المسلمين الهنود الاجتماعية والسياسية . كان يعبر عن العواطف الشخصية القومية ويعالج موضوع الحب الذي كان يعتبر في مجتمع القرون الوسطى حباً محرماً فقط حسب الاعتقاد ، أو أنه كان يستخدم بصورة رمزية في الحب الصوفي للخالق عز وجل . وكان اذا ما ألقى أحد الشعراء قصيدة في موضوع الحب ، لم يكن بوسع السامع أن يجزم فيما اذا كان الشاعر قد نظم قصيدته استناداً الى تجربة واقعية ، أو أنه يتغنى بحب خفي أم أن ما يلهج به من حب ليس الا محض خيال . لقد كان الازدواج من الأسس الرئيسية لتقاليد الغزل .

إلا أن غزل القرون الوسطى كان لا يقتصر على معالجة الحب فحسب ، بل كان يوجه اللوم ويندد في الوقت ذاته بكل العادات والتقاليد الجامدة والمثل العليا الثابتة ، والتنظيمات المقررة لدى المجتمع الاسلامي الاقطاعي وممثليه من الاشراف ورجال الدين . وقد اكتسب الغزل سمعة وشعبية عظيمتين في المجتمع الاسلامي بسبب مضمونه الاجتماعي ونظراته الانتقادية في الواقع الاجتماعي .

أما الحكام الاقطاعيون فلم يكن لهم اعتراض ما على النقد الذي ينطوي على ازدواج في المعنى خاصة لما يطبع لغة الغزل من مبالغة، يتعذر معها أخذ معانيه بمعناها الظاهر أو المباشر . ومن ثم تطور الغزل بالتدريج وأصبح أداة للثورة الاجتماعية موجهة ضد دعائم النظام القائم . وقد استخدم الكثيرون من الشعراء (ومن بينهم أيضاً اقبال) - في ظل الأوضاع الاجتماعية السياسية في شبه القارة الآسيوية الجنوبية - هذا الطراز من الشعر خلال الخمسين عاماً الأخيرة كأداة يستعينون بها في معركة التحرير القومية . يعمد الشاعر هكذا الى تحويل محبوبه التقليدي الى كل مثل أعلى محبب لديه ، الى كل مثل أعلى هو على استعداد للانقطاع اليه والتضحية في سبيله ، لا فارق فيما اذا كان هذا المثل حقيقياً أو لا وجود له الا في الخيال ، قانعاً طائعاً ومختاراً بمعاداة بيئته ومحيطه له ، معتبراً ذلك كنتيجة لانقطاعه ووقف نفسه على المحبوب . وقد عبر ر . راسل عن ذلك بقوله : «ان الغزل العصري هو الشكل التقليدي الذي يعبر عن مشاعر أولئك الذين يوقفون أنفسهم على القيم التي يؤمنون بها ، على الرغم من العداوة التي تقابل هذه القيم لدى أفراد جماعاتهم وطائفتهم . ويبدو على ما يظهر بأن الغزل سوف يواصل تطوره ويصبح واسطة ملائمة يجيب بها الناس على شروط حياتهم» (١٦) .

تكون أشعار الغزل قسماً هاماً من أعمال فيض ، وتتوغل في سائر أشعاره الكثير من المفاهيم المشتقة من هذا التراث الشعري ، وعلى الأخص مفهوم **العشــق** ، وبالرغم من أن يحب «الغزل» ويملك حاسة قوية تجاه الشكل ، فقد كان يدرك تماماً صعوبة تطوير النواحي المختلفة للواقع الاجتماعي بواسطة الموضوعات والأشكال المتواضع عليها في الشعـــر الكلاسيكي . كان يرى بوضوح استحالة التعبير عن الواقع بالرموز والاستعارات المتحجرة لأنها غير صالحة للتعبير عن الأفكار العصرية ، كما أنه ليس بامكان المصطلحات الأدبية القديمة أن تعبر بسهولة عن مشاعر الانسان العصري . كان يشعر بأن كل شكل أدبي ثابت ينغلق عن جانب عظيم من الحياة ، وأن الكثير من مسائل الحياة العصرية لا تجد مكاناً لها في عالم العشاق الخيالي أو في عالم شاربي الخمر ولا تتناسب مع هذه العوالم البعيدة . في أشعاره المتأخرة تخلص فيض من المشاهد والزخارف المسرحية القديمة وغشى نور النهار العصري الحديث . . . واخترقت أبياته الشعرية خزينة كنوز أدب الأردو وغشت الحياة الحقيقية الصاخبة وأصبحت تكون قسماً ثابتاً من النهضة الاجتماعية ومن الجهود الرامية الى تجديد شبه القارة الهندية بأكملها .

لم يكن بمقدور فيض بالتأكيد خلق لغة جديدة أو نظام جديد للأمثولات والاستعارات وغيرها من المحسنات والأدوات الشعرية ، الا أنه تمكن من استخدام الرموز القديمة بطريقة جديدة ، اما تعابيره اللفظية فقد ظلت على حالتها الأولى تقتضي بالعرف الموروث ، الا أن معانيها قد تحولت الى معان سياسية . وقد مكنته دراساته للآداب الأوربية ، وعلى الأخص للأدب الانجليزي ، من ادخال تجديد ذي أثر بعيد على الصور الشعرية القديمة ، وهو ما يعني أيضاً تجديد التقاليد الشعرية في اللغة الأردية واللغة الفارسية . لقد خلع على الرموز الكلاسيكية معان جديدة مستمدة من الزمن الحاضر .

الرمــز	المعنى التقليدي المقرر	المعنى الجديد
الحب (عشق)	حب المرأة المحرم العام غير المرتبط بالزواج (عشق مجازي) حب الخالق	روح التقدم الاجتماعي
الحبيب والحبيبة (محبوب معشوق)	فتيات «پرده» أي مستورات ، امرأة رجل آخر ، محظية غلام جميل ، الخالق ، أحد المُثُل العليا	الزوجة ، الوطن ، الاستقلال ، التحرير ، أي مثل أعلى تقدمي
الصنم (صنم)	المعشوقة	الشعب
العاشق (عاشق)	عاشق فتاة أو امرأة ، المتعبد فى الله	المتعلق بالمُثُل العليا ، المدافع عن عقيدة سياسية
الخصم (غير)	المنافس في الحب	الخصم السياسي ، المعارض ، العدو الاجتماعي
وصال (وصل)	السعادة	الحريــة
الفراق	الغمّ ، التعاسة	السجن
وليمة أو مأدبة (بزم)	الاجتماع ، الحديث ، الاستقبال	المجتمع
الحانة (ميخانه)	مكان الايحاء ، ينبوع المشاعر النقية	حركة سياسية ، أفكارهــا
ساقي الخمر (ساقي)	الحبيبة ، ينبوع الوحي	صديق حميم ، المعزي ، صديق ثقة أو أمين سر
مكان مبارك ، هيكل (حرم)	عقيدة شكلية	اجحاف اجتماعي ، بيروقراطية عقيمة

المشرف على مراقبة السوق (محتسب)	مفتش	مراقب
مرج (جمن)	عالم الكائنات الدقيقة	المجتمع البشري
قاطف الورد (كليجين)	الموت	الطاغي ، المستغل
مأزق اللوم (كوى ملامت)	المكان الذي تقطنه الحبيبة والمكان الذي توجه فيه اللوم لحبيبها لأنه تجرأ على زيارتها	المثل الأعلى الذي يستحق المساندة الا أن قوى العالم الحاضرة تناهضه

احتفظ فيض بأسلوبه الخاص به في شعره الغزلي وفي الأشعار التي نظمها على أشكال عصرية حديثة ، وتبرز في كلا اللونين معالم نوعية موسيقية خاصة طابعها التدرج كما يبرز التنوع في استخدام الألوان الرقيقة . ويقول أحد مترجميه ان أفكاره السياسية تتطابق مع ضميره الشعري في ائتلاف شديد بحيث أنه في احتجاجه العنيف على الاضطهاد والاجحاف يحتفظ بوقار الترتيل ذي النغم العــــذب الأخاذ . . . الا أن رقة شعره وما يتمثل فيه من عاطفة لا يصرفان الانتباه عن مضمون رسالته الشعرية الثوري ، بل على العكس ، انهما يبعثان في نفوس القراء الشجاعة والعزم اللذين لا بد منهما في احداث كل تغيير جوهري في حياة المجتمع .

ويبشر الطريق الذي يسلكه فيض في الشعر بجني ثمار جديدة لشعر الأردو . انه لدليل على قوة ونمو أدب الأردو حين يعقد هذا الشعر الصلات بين التقاليد الكلاسيكية وبين التفكير التقدمي الحديث . لقد تحققت واقعية شعر فيض من خلال حياته وشجاعته التي تغلب بها على ما صادفه من مشاق .

(١) لا يعرف تاريخ ميلاد فيض أحمد على وجه الدقة وتقول زوجته «أليس» ، «بأن والدته لا تتذكر تاريخ مولده بالضبط ، ولهذا فقد استند على المعلومات التي أدلى بها عمه في هذا الصدد ، وذلك لخلو أية اشارة الى تاريخ مولده . راجع مذكرات السيدة أليس فيض في «**محفــــل**» شيكاغو ١٠ ،١ (١٩٧٤) ، صفحة ١٢٣ ـ ١٣٠ .

(٢) تم انتخاب «بريم تشنده» رئيساً . راجع التقرير الموضوع من قبل «حفيظ مالك» عن موقف فيض تجاه نوايا هذا الاتحاد تحت عنوان :

The Marxist Literary Movement in India and Pakistan, *The Journal of Asien Studies* (Ann Arbor) XXVI, 4 (August 1967), s. 653 ff.

٢٦ ، ٤ (أغسطس ١٩٦٧) ، صفحة ٦٥٣ وما بعد .

(٣) تستند المعلومات الواردة عن مجرى حياته على ما نشر في هذا الصدد في **محــفـــل** شيكاغو ١ ، ١ (١٩٦٣) ، وعلى محاضرة ألقيت في محطة الاذاعة ، ثم فيما بعد على مقدمة عن مجموعة فيض **دست ته سنگ** تم طبعها في لاهور في عام ١٩٦٥ (نقلها الى الانجليزية كارلو كوبولا ومنيب الرحمن في **محفل** ١٠ ، ١ (١٩٧٤) ، صفحة ١٣١ ـ ١٣٩) ، وعلى التمهيد المقدم من قبل الرائد محمد اسحاق عن مجموعة فيض **زندان نامه** ، دلهي ١٩٥٦ ، ثم على الكثير من المصادر الثانوية الأخرى .

(٤) الأسباب الأصلية لمؤامرة راولبندي ، راجع

Jamna Das Akhtar, *Political Conspiracies in Pakistan*. Delhi 1969. s. 59 ff.

دلهي ١٩٦٩ ، صفحة ٥٩ وما بعد .

لوحة زيتية من الباكستان . للطيور أقفاص . من عمل الفنان أنور مقصود .

يانوس ريس

نظرة على الأدب في السنغال

«زنجيتي ليست صخرة صماء»

سيزير

يشير تعبير «إفريقيا المتحدثة بالفرنسية» الى دول غرب إفريقيا التي أصبحت اللغة الفرنسية فيها هي لغة الكتابة وبالتالي لغة الأدب ، وذلك كتبعة لسياسة الاستعمار الفرنسي التي استهدفت ادماج شعوب هذه الدول في الحضارة الفرنسية ، وأنشأت لهذا الغرض في بداية القرن الحالي بالتعاون مع الكنيسة الكاثوليكية وارسالياتها نظاماً تعليمياً فرنسياً متكاملاً .

ارتبط الأدب الافريقي الحديث في تلك البلدان بمفهوم الزنجية Négritude ، أو قل أنه نشأ في أحضان هذه الايديولوجية ، وقد صاغ هذا المصطلح الشاعر ايميه سيزير Aimé Césaire صاحب الديوان المسمى «كراسة عودة الى بلدي» (١٩٣٩) .

لم تنشأ فكرة «الزنجية» في افريقيا وانما بين أدباء كوبا وهايتي والدومينيك وغيانا ، على أن الزنجية كأيديولوجية وحركة أدبية تأسست في فرنسا ، أسسها في بداية الثلاثينات ليبولد سنغور وسيزير وليون دماس Damas بالاشتراك مع أدباء حركة النهضة الزنجية الأمريكية لانجستون هوجز Hughes وكونتي كولن Cullen وكلوديه مكاي McCay .

ودون شك فان أشهر رواد هذه الحركة هو ليبولد سنغور (رئيس جمهورية السنغال حتى وقت قريب) . وسنغور من مواليد عام ١٩٠٦ ، وقد عاش طويلاً في فرنسا ، وتلقى هناك ثقافته الأساسية ، وهو يعتبر نفسه «مولداً ثقافياً» من حضارتي افريقيا واوربا ، ومن ثم فهو يحاول التوفيق بين حضارته الافريقية الأصلية وثقافته الفرنسية ، فجهوده ترمي الى رفع «الصدام الحضاري» cultural clash ، وتحقيق المصالحة بين الحضارتين ، أو بتعبير آخر الحفاظ على زنجيته أو ذاتيته في اطار ثقافته الخارجية . ويشرح سنغور ذاته صعوبة هذه المعادلة ، فيقول : لقد قرر المثقفون الافريقيون أن يواجهوا الغرب ، وأن يواجهوا ذلك العالم الذي أهدر حريتهم وسلبهم كل شيء . وكان من الصعب عليهم أن يختاروا أيديولوجية نشأت في أوربا مثل الماركسية ، فقضيتهم الأساسية هي «العنصرية» ، ومن ثم اختاروا لأنفسهم تحت هذه الظروف مذهب «الحضارة العالمية» ، رافعين بذلك راية «الانسانية» والتعايش المشترك مع جميع الشعوب ، مستهدفين أن يعيدوا الى الأفارقة وعيهم بأنفسهم وبشخصيتهم الحضارية .

كان حلم الأدباء الأفارقة في تلك المرحلة التي ازدهرت فيها أيديولوجية أو فلسفة الزنجية هو ـ أن تتسع الانسانية لهم ، وأن يحتلوا مكانهم في العالم ، وأن يكشفوا النقاب عن مآساتهم وأيضاً عن قواهم الخفية وعن قدراتهم وآمالهم . ومن ثم كان اتجاههم الى «الشعر» كأكثر وسائل التعبير عاطفية وكثافة وقدرة على الانفعال والاحساس بالذات وعلى التعبير على الروح الجماعي . فالفلسفة أو الفكرة الزنجية تحلم بيوتوبيا الاخاء بلا حدود ، وتتطلع الى «انسانية أكثر إنسانية» ، وتستخدم الفرنسية كوسيلة للتعبير .

على أن فلسفة «الزنجية» هذه كما يعبر عنها سنغور قد

تعرضت للكثير من النقد . ويذهب النقاد الأفارقة الى أن سنغور يجري وراء الكثير من التصورات الرومانسية الكاذبة وانه بمقولته عن «عاطفية الافريقي وعقلانية الأوربي» يقتضي نفسه بتلك الأحكام السلبية المسبقة التي أطلقها الاستعمار في وجه الأفارقة .

وأياً كان الأمر فقد تغير وجه الأدب الافريقي الفرنسي منذ قيام حركة «الزنجية» ، تغير خلال صراع تلك البلدان مع الاستعمار الفرنسي في الخمسينات ، وانتقل التعبير من الشعر الى النثر ، ومن العاطفية الى النزعة التحليلية الواقعية ، وفي تلك الفترة اشتهر الروائي السنغالي سمبين اوسمان Ousmane Sembene والكاميروني الكسندر بييدي Alexander Biyidi والنيجيري شنو أشيب Achebe

وحين نتحدث في التالي عن الحركة الأدبية في السنغال في المرحلة الراهنة ، بعد عقدين من حصول السنغال على استقلالها فمن الطبيعي أن يعود الحديث أيضاً الى بدايات هذا الأدب . ثم إن الأدباء الشبان في السنغال يحددون موقفهم الأدبي أيضاً بالنظر الى أيديولوجية «الزنجية» أو فلسفة التوفيق بين الحضارتين .

أحاديث عن الأدب في السنغال

كانت «إفريقيا» هي شعار معرض الكتب الدولي بفرانكفورت عام ١٩٨٠ ، وفي هذا الاطار نُظّمت أيضاً ندوة ثقافية بعنوان «وظيفة الأدب الافريقي الحديث» ، وقد شاركت السنغال في المعرض والندوة بوفد كبير من الأدباء المعروفين والناشئين ، وكانت جائزة المعرض الخاصة من نصيب الأديبة السنغالية الناشئة ماريما با Mariama Ba عن روايتها الأولى خطاب طويل Une si Lettre longue . وكان لذلك الاهتمام والتقدير صداه وأثره المعنوي ، فهو يعني أن أوربا تأخذ هذا الأدب مأخذ الجد وتفتح له أبوابها . ولكن هذا ليس إلا جانب واحد من الصورة ، فالجانب الآخر هو الرجوع الواضح عن التطلع الى أوربا والاهتمام المتزايد بالتراث الذاتي الافريقي ، وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب الأفارقة في ندوة فرانكفورت المذكورة بقوله : «لم يعد هناك ما نستطيع أن نتعلمه من أوربا» . وقوبل هذا القول بالاستحسان والتصفيق . وبايجاز فان النظرة الى أوربا قد أصبحت الآن غيرها في الماضي ، قد أصبحت نظرة نقدية صارمة كما تعبر عن ذلك مؤلفات الأدب السنغالي في الآونة الأخيرة .

ففي رواية «الأبيض والأسود» Le Blanc du Nègre يعرّي الكاتب «مبي كيب» Mbaye Kebe سياسة «مساعدات التنمية» في السنغال من ظاهرها البراق ويضعها موضع الاتهام .

تقف أوربا الآن أمام محكمة الأفارقة ، وتوجه اليها التهم والشُبه دون حدود . ففي مقدمة مسرحية «القسم» Le Serment يكتب الأديب الشاب «بيلال فال» Bilal Fall : «علينا أن ننفصل تماماً عن النموذج الأوربي . ان انتظرنا حتى عام ٢٠٠٠ سيكون قد فات الآوان ، فحتى ذاك ستكون الدول الغنية (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وغرب أوربا) قد أحكمت قبضتها علينا ، بحيث قد لا تحجم عن ابادتنا تماماً من أجل الحفاظ على مصالحها في بلادناومن أجل الاستيلاء على ثرواتنا» ـ وقد يدهش المرء حين يعلم أن هذه المسرحية قد عرضت في العام الماضي في العديد من المدارس العليا فى السنغال .

تعم هذه النظرية الراديكالية الشباب والطلاب والتلاميذ بوجه خاص ، ففي احدى الندوات التي نظمها معهد جوته بالاشتراك مع الأديب السنغالي «كيب» أمام طلاب معهد المعلمين العالي بمدينة سان لويس ، حيث دار الحديث حول «الاهتمام الحاضر بالأدب الافريقي» وحول «الأديب الافريقي وقضية الالتزام» . كان الاستحسان على الدوام ملحوظاً في كل مرة يوجه فيها «كيب» نقده اللاذع الى النفوذ الفرنسي الكبير والى ايديولوجية «الزنجية» والى النتاج الشعري لهذه الأيديولوجية . بل إن هذا النقد قد لاقى ـ في ندوة تالية بالمركز الثقافي الفرنسي بسان لويس ـ تأييد المدرسين الفرنسيين العاملين بالمدارس الثانوية . وكانت وجهة هؤلاء أن أدب ليبولد سنغور الذي يُدرّس في الفصول العليا من المدارس لا يوافق مدارك التلاميذ وأذواقهم وتطلعاتهم .

والقضية بالنسبة لـ «كيب» ليست قضية «سنغور» وأدبه وانما هي قضية المدرسة الأدبية التي تقتفي أثره وتقلده . ففي رأيه أن أيديولوجية «الزنجية» قد أصبحت وسيلة

تستخدم لتكريس التبعية السياسية لفرنسا . ولعل المنظر التالي من رواية «كيب» المذكورة من قبل («القسم») يوضح ذلك : في هذا المنظر نرى الخبير الفرنسي جان ليكولن يلقي قصيدة من نظمه . وهو يلقي أبياته ويتطلع الى قصر رئيس الجمهورية وكأنه «يهدف الى أن يأسره بسحره وأن يلقحه بفيروس الرجل الأبيض» . وبعد ذلك يعقب رئيس الجمهورية على هذه القصيدة بقوله : « يا لها من قصيدة ! انها زهرة من زهور اللغة الفرنسية ، يجب أن نخلدها لهذا البلد ، الذي يكثر فيه اللغط عن اللغات المحلية القومية . علينا أن نحافظ على اللغة الفرنسية . هذه هي رسالتنا!» .

إن تحقيق هذه الرغبة ، وهو المحافظة على اللغة الفرنسية ، يعكس الكثير من قضايا التغريب والاستلاب الحضاري في السنغال . وهذه قضية شديدة التعقد . ففي جولتنا داخل المركز الثقافي الفرنسي بسان لويس في احدى الأمسيات ، كانت الدار مزدحمة بالقراء من الشباب من مختلف الأعمار ، وقد ازدحم بهم المكان بحيث اضطر البعض منهم الى أن يقعي على الأرض أو يجلس على درجات السلم . وكان من الملاحظ أن جميع الكتب كادت تكون مهلهلة من كثرة الاستعمال ، وهي كتب أدبية وعلمية ، أوربية وافريقية . وكما تبينا فان معدل الاستعارة من مكتبة المركز الثقافي يفوق مثيله في البلدان الأوربية . ومن هذا المركز ترسل الكتب الى جميع بقاع السنغال . فهل هذه وصاية حضارية أم مساهمة حضارية في تنمية هذا المجتمع الناشىء ؟

من العسير أن نتصور ضياع الصبغة الحضاريةالفرنسية من هذا البلد ، على أن هذه «التبعية» تُستوعب الآن عن وعي وادراك بدرجة لم تعرف من قبل . وكان هذا واضحاً من ندوة شارك فيها كاتب هذه السطور عقدت بجامعة Mutant بجزيرة Goree . وتحتل هذه الجامعة مبنى دير قديم وقد نبعت هذه الجامعة من فكرة صاغها روجر جراودي Garaudy تنطلق من أهمية الحوار بين الحضارات Dialogue des Civilisations وتستهدف عن طريق الحوار والتأمل اكتشاف الجوانب الحضارية المشتركة والمغايرة بين الحضارات الكبرى ، ومن ثم رفع مستوى الفهم المتبادل . دار الحديث في هذه الندوة عن تلك الأساطير والخرافات الشعبية الأوربية والفرنسية التي تدرس في المدارس السنغالية والتي يستوعبها التلاميذ في سن مبكر عن ظهر قلب وكيف ان الكثير منها يرتكز على قيم نفسية واجتماعية تناقض القيم الأساسية الحضارية للمجتمع الافريقي .

استيعاب الأدب الافريقي في أوربا

يختلف منظور الافريقيين الى الأدب عن منظور الأوربيين ، ويعود اختلاف النظرة الى اختلاف المعايير والتوقعات الناتجة عن اختلاف الأصول الاجتماعية التاريخية . ومن هذا الوجه يوجه اتحاد كتاب السنغال النقد الى الطريقة التي يستوعب بها الأدب الافريقي في أوربا . فدور النشر الأوربية تفضل على الدوام الكتّاب المعروفين والموضوعات المطروقة وتتجنب ما هو غريب أو جديد ، ومن ثم يأخذ الأدب الافريقي في صورة بعينها طريقه الى أوربا ،أما إفريقيا من الداخل فتظل مجهولة ، لأنها شيء جديد أو مجهول . وفي ظل ذلك يترجم كتاب ماريما با «مصير المرأة الافريقية» ويهمل كتاب أمينتا سنو فال «إضراب الشحاذين» La Grève des Battù ، على الرغم من أن هذا الكتاب يعالج موضوعاً حساساً وهاماً في المجتمع الافريقي ألا وهو موضوع «الشحاذين» ، في هذه الرواية يضرب الشحاذون عن ممارسة «مهنتهم» احتجاجاً على ما يعانونه من شدة وقسوة وازدراء ، ومن ثم يوقعون المجتمع كله في ورطة كبيرة إذ هم يذكرون الناس بفريضة الزكاة التي لا يؤدونها .

يطرح الأدباء الأفارقة العديد من الأسئلة عن السبل والقنوات التي يتم من خلالها نقل الأدب الافريقي الى اللغات الأخرى : كيف يتم الاختيار ؟ وهل يُرجع في هذا الاختيار الى الكتاب الافريقيين أنفسهم ؟ لماذا لم تترجم أعمال كاتب كبير مثل «شيخ اليوندو» Ch. Aleou Ndao لما لم تصادف رواية ماليك فال «الجرح» La Plaie أي اهتمام ؟

للاجابة على هذه الأسئلة يحتاج الأمر الى اجراء بحث مستفيض عن الشروط وعن القنوات التي يتم خلالها نقل الأدب الافريقي الى اللغة الألمانية والى اللغات الأوربية الأخرى . على أننا نستطيع أن نقول : إن الشرط الأساسي لاستيعاب الأدب الافريقي في المانيا أن يجمع هذا الأدب

بين المعروف والجديد والغريب . أما حين تكون القضايا التي يطرحها الأدب الافريقي مشابهة لتلك التي يعالجها الأدب الألماني ، فمن البديهي أن لا يقل الاهتمام بنقل هذا الأدب ، إذ لماذا كل هذا العناء في الترجمة والنقل اذا كانت القضايا هي هي . وبالمثل حيث تكون الموضوعات المعالجة في الأدب الافريقي شديدة الغرابة أو شديدة البعد عن مخيلة القارىء الأوربي ، فمن البديهي أيضاً أن يتردد الناشرون في تقديم مثل هذه المؤلفات التي يصعب على القارىء الألماني استيعابها أو الالمام بها .

فالخصوصية الشديدة تقف أيضاً عائقاً في سبيل الفهم والاستيعاب وهو ما ينطبق على الكثير من قصص الأديب «ندو» Ndao . فما حاجة القارىء الألماني أن يقرأ على سبيل المثال قصة «ندو» التي تدور حول تقديم كبش من الأكباش قرباناً على الرغم من أن هذا الكبش يحمل في جبهته بقعة سوداء تحرّم ذبحه وفقاً للأعراف والعقائد السائدة ، وكيف أن هذا الفعل قد أدى الى اندثار جميع أفراد الأسرة التي ُقدمت عليه .

العناصر الاسلامية العربية

تبرز المقومات البيئية والاجتماعية الأصلية بتزايد في الأدب الافريقي المؤلف باللغات الأوربية . ومنذ فترة قصيرة أخرجت دار من دور النشر قاموساً فرنسياً جديداً يطالب مؤلفه في المقدمة بتطوير اللغة الفرنسية وفقاً لواقع الحياة في السنغال .

وهذا ما يذكّرنا بالعنصر الثالث الهام من عناصر الحضارة في السنغال ألا وهو الدين الاسلامي والحضارة العربية . القضية إذن ليست فحسب هي قضية العلاقة بين العنصر الافريقي والأوربي وحدهما ، فكثيراً ما ينسى البعض أن السنغال تملك أدباً ثرياً باللغة العربية يعود الى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، أي يعود الى فترة زمنية سابقة على نشأة الأدب الافريقي الجديد باللغة الفرنسية .

لا شك في أهمية الاسلام كأحد المقومات القومية الحضارية في السنغال وكأحد المعالم الهامة للشخصية السنغالية القومية . ويبدو ذلك واضحاً من رد الفعل الذي أثارته مقالة نشرت في ديسمبر من العام الماضي بمجلة باريس ماتش Paris Match يعرّض فيها كاتبها بطائفة المريدين بالسنغال ويتهم مؤسس هذه الطائفة «اما دو بامب Bamba وخلفاءه باستغلالهم الدين كوسيلة للاثراء على حساب الفلاحين ويتهمهم باستغلال زراعة الفول السوداني . ويصف كاتب هذا المقال جان لارتجوي J. Lartaguy «المريدين» بأنهم متعصبون مشاغبون وعمليون ، وانهم يحاولون توسيع رقعة نفوذهم على حساب طائفة Tidjane وانهم يتطلعون بمساعدة ليبيا الى الاستيلاء على السلطة في البلاد .

كان رد فعل صحيفة «الشمس» اليومية Le Soleil التي تصدر في العاصمة السنغالية شديد العنف . وتعاقبت التعليقات والتصويبات على هذا المقال بحيث احتلت حيزاً رئيسياً من نسخة الجريدة الصادرة في ١٢ - ١٤ ديسمبر ١٩٨٠ ، وكان من بينها تعليق بقلم «دج بو كا» Dj bo Ka مدير مكتب رئيس الجمهورية يقول فيه : «إن طائفة المريدين مثل بقية الطوائف الاسلامية تساهم بنصيب حيوي من أجل تطوير المجتمع السنغالي وترقية مستوى التعليم فيه . ثم ان تعاليم هذه الطائفة التي تؤكد أهمية العمل والاجتهاد الفردي ، تتفق تماماً مع القناعات السياسية والاقتصادية والحضارية للرئيس سنغور ومع ما يطالب به باستمرار من أجل تدعيم استقلال وتطوير البلاد» .

ان عنف رد الفعل على المقال المذكور لهو من الدلالة بمكان ، فهو يوضح الحساسية الكبيرة التي تميز الرأي العام السنغالي ، كما يوضح أن وحدة السنغال تقوم على الالتقاء والموازنة بين العناصر الاسلامية العربية والأوربية الفرنسية . واذا ما عدنا الى موضوعنا وهو الأدب السنغالي الحديث ، فمن الواضح أن هذا الأدب هو أيضاً مرآة لهذه العناصر المختلفة التي تتكون منها الشخصية السنغالية ، ومن العبث محاولة تغليب عنصر على عنصر آخر ، وبايجاز فالأدب السنغالي الحديث هو على الدوام مجموع هذه العناصر ، بل هو في نماذجه الناجحة يؤلف بشكل أو آخر من المقومات الثلاثة الرئيسية ينبع منها ويعبر عنها ولا يتنكر لعنصر منها على حساب العناصر الأخرى . ولا جدوى من محاولة فهم هذا الأدب الافريقي الحديث دون ادراك أبعاده الثلاثة المذكورة .

لوحة زيتية من المغرب . نظرة . للفنان عبد الحق سجلماسي .

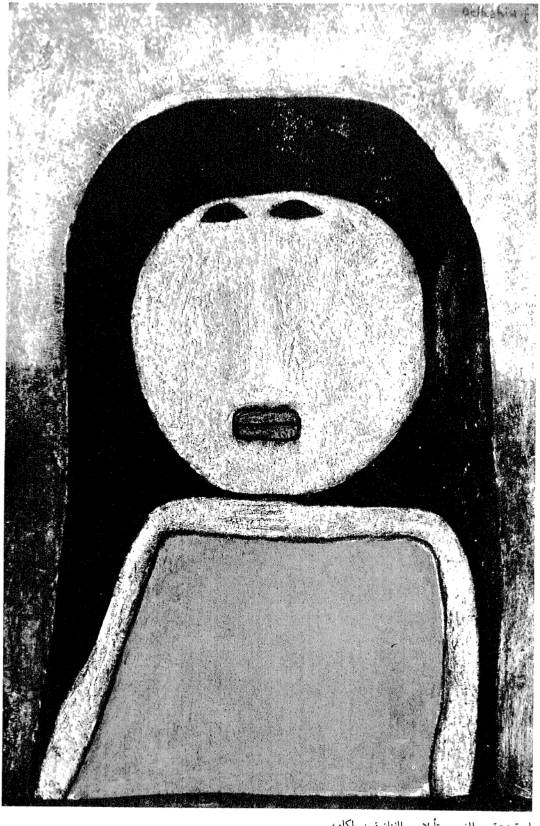

لوحة زيتية من المغرب . تأملات . للفنان فريد بلكاهيه .

يوسف الشاروني

الثأر

الأحقاد - كالبذور التي يبذرها أهل قريتي - لا تدفن إلا لكي تعود وتنمو . يصبرون على بذورهم شهوراً وعلى أحقادهم سنين حتى تنضج الثمار وتفرخ المآسي . ما أن تشتد أعواد الذرة أو القصب وتعلو فوق قامة الانسان حتى يكون كل شيء قد نضج : الثمار والأحقاد ، وأوشك موسم الحصاد . فيخرج كل من له ثأر أو يرى أن الوقت قد حان لغسل عاره ويختبيء بين أعواد الذرة الفارعة الخضراء متربصاً بعدوه . . . ومن حين لآخر تسمع صوت طلقات أعيرة نارية تعقبها خشخشة بين العيدان التي تتكسر بعضها تحت هرولة الأقدام المسرعة الهاربة . ثم يسود الصمت لحظات ، حتى يجد المارة طريقهم الى جثة الضحية ومن بعدهم أهله ، فيحملون جثة قتيلهم ، لا يبلغون الشرطة ولا يتقبّلون عزاء . . . فبمصرع قتيلهم ستنمو في قلبهم بذرة حقد جديدة سوداء ، تتعهدها الأمهات في قلوب أطفالهن سنين وسنين حتى يصبحوا شباناً قادرين على تصويب السلاح ، ويتعهدها الأعمام والأخوال والعرف والبيئة .

غير أن هناك أفراداً - هم الطلائع والرواد - ، أقدر من غيرهم على مقاومة هذا التيار ، من هؤلاء عمدتنا ميهوب شاب فى الثلاثين ، أتاحت له أسرته الميسورة تعليماً مبكراً قبل أن ينتشر التعليم - الذي ساهم هو في نشره في قريتنا . لكن وفاة والده الفجائية وعصبية أسرته منعاه من إتمام تعليمه الجامعي . فاستدعته أسرته ليعود مسرعاً ليتقلد منصب العمودية حتى لا يفوز به أحد من الأسر الكبيرة الأخرى التي تنافس أسرته . لكنه عاد وقد تنفس جواً غير جو قريتنا ، جو المدينة الذي لا تنمو فيه أعواد ذرة ولا أعواد قصب ، ويلجأ الناس فيه لفض خلافاتهم الى المحاكم والقضاء .

وككل الدعاة والمصلحين لقى ميهوب معارضة شديدة . ابتداء من شباب القرية وشيوخها حتى أقرب الناس اليه : أمه وأخوته وأخواته . اتهموه بالجبن وبأن المدينة جعلته أقرب الى النسوان ، وبأنه وقع فى حب بنت مصرية وأصبح عوده - مثلها - طرياً . ومع ذلك فقد استطاع أن يجذب حوله عدداً من المؤيدين . غير أن الدعوة الجديدة ما لبثت أن كانت موضع امتحان عسير حين وقع حادث هز القرية من أولها الى آخرها ، ليس لأن القتيل كان شاباً محبوباً مسالماً شهماً فقط ، بل لأنه تبين أن القتلة كانوا من خارج قريتنا . . . من قرية طناش الجبل المواجهة لنا .

كانت قريتنا - قبل انشاء السد العالي - شبه جزيرة طوال فصول الخريف والشتاء والربيع ، تحيطها مياه النيل من جميع الجهات ما عدا خور مليء بالرمال الناعمة بيننا وبين طناش الجبل ، طالما لعب فيه أطفال القرية في الليالي الجبلية ، يجرون وراء بعضهم البعض يلعبون المساكة والاستغماية ويقعون ويقومون ولا خوف عليهم من الرمال الناعمة . لكن الويل لمن يتخلف منهم عندما يتحرك الركب عائداً الى القرية . فالضباع تتحفز في أعلى الجبل ، تعوي طوال الليل باحثة عن فريستها ، متربصة بمن تستطيع الانفراد به . هكذا حدث للولد عادل أبو اسكندر ، ولمحمد أبو عوضين عامل التراحيل . . . ثم يأتي فيضان النيل كل صيف فيركب البلد ، ويمتليء الخور بالماء وينقطع الطريق بين قريتنا - التي تصبح الآن جزيرة - وقرية طناش ، ويتنفس أهلها الصعداء ، فسيرتاحون شهرين أو ثلاثة أشهر من أسرة الجرابيع التي تسكن طناش - ولا عمل لها إلا الاغارة على جزيرتنا - حتى تعود المياه فتنحسر ، ولم تكن هذه هي فقط فائدة مياه الفيضان ، كانت فائدتها الأهم أن أهالي قريتنا لا يتعبون في ري أراضيهم ولا في تسميدها ،

كانت مياه الفيضان بطميها تتكفل بذلك ، بل إن الحكومة كانت تعتبر أرضهم أرض جزائر ، أي غير صالحة لزراعة القطن ، فتعفيهم من حصصهم في زرع هذا المحصول الذي تفرضه على القرى المجاورة ، وبهذا تصبح لهم حرية زراعتها بأنواع الخضار التي لا يحتاج اليها المركز فقط ، بل تسافر على المراكب النيلية حتى تصل الى مصر أم الدنيا . وكان العجور هو زراعتهم المفضّلة ، عرفوا كيف يبذلون الجهد في العناية به ، فهو يحتاج الى وقاية خاصة من برد الشتاء ، وتلك مهارة لا يبرع فيها إلا الجزايرة . وفي أوائل الصيف ـ وقبل أن يفيض النيل ـ يتم تحميل عشرات المراكب في طريقها الى القاهرة لتعود بأوراق العملة الخضراء التي تستحيل الى بيوت مبنية بالحجارة ـ وليس بالطوب النيء كبيوت القرى الأخرى ـ والى أفراح وجلاليب جديدة وقفاطين وخير كثير يخزنونه لتموين العام من سمن وجبن وفريك وكشك حتى الملوخية الجافة والبامية الجافة .

أما قرية طناش الجبل فلم تكن تخلو كذلك من نعم الله . فهي ترقد في حضن الجبل . والجبل هو المكان المفضل لدى أجدادنا الفراعنة لدفن موتاهم ـ ولا يزال لدينا حتى الآن نحن الأحفاد . لكنهم ـ على خلافنا اليوم ـ كانوا يدفنون موتاهم في توابيت بداخلها توابيت ، حجرية ثم خشبية ، يحفرون عليها جميعاً كتابات مصورة ملونة ويغلفونها بأقنعة تصوّر وجوههم ، وبكل وجه عينان من الحجر الكريم ، ما أن أبصرهما سعداوي حتى صرخ حاسباً انهما لعفريت من الجن ، ثم تماثيل صغيرة وأواني ذهبية وكأنهم وضعوها خصيصاً ليأتي اليوم أهالي طناش الجوعانين فيضربون بفؤوسهم مرة بعد مرة حتى تصطدم الفأس بحجر ، وتكون لصدمة الفأس رنة كأنها ملايين الزغاريد في ملايين الأفراح . بدأ الأمر صدفة في بيت سعدواي ، وقد ظل يبيع مما أعطاه الله ، وفي حذر ، لتاجر الآثار اليوناني بالمركز الخواجه بنايوتي حتى وقعت عركة بينه وبين ابن عمه ، فوشى به للحكومة . وأسرعت الحكومة لتجد أنه أحرق التوابيت الخشبية وأخفى كل ما يمكن حمله من آثار ، ولم تتبق إلا التوابيت الحجرية الضخمة . وحكم عليه بالسجن سنتين عاشهما كملك . من يومها بدأت الفؤوس تنبش الأرض أملاً في سماع تلك الرنة . ولكن أهل طناش ظلوا رغم ذلك فقراء يعيشون على ما يقتطعونه من ملح من الجبل يبيعونه لبقالي القرى المجاورة ومنها جزيرتنا . أو يعيشون على ما يتصدق عليهم به أهالي الموتى الذين يفدون ـ كأجدادهم الفراعنة ـ في قوارب من الشاطىء الآخر يحملون موتاهم عبر النيل ليدفنوهم في حضن الجبل . ثم يقبلون كل عيد ليقضوا بعضه معهم فيؤنسون بذلك وحشتهم ، ويطمئنون أنفسهم الى أنهم سيجدون بدورهم من يؤنسهم يوماً ما . غير أن بعضاً من أهل طناش ومن بينهم أسرة الجرابيع لم يشأ أن ينتظر الحظ ولا أن يعيش على الكفاف فألف عصابات للسطو ، ليلاً وأحياناً نهاراً ، على جزيرتنا التي أثقلتها خصوبة أرضها ونشاط أهلها حتى ترهلوا . كما كان يستأجرهم بعض أثريائنا للقتل أخذا بالثأر ، عندئذ كانوا يخرجون وقد تجردوا من ثيابهم تماماً ، ارهاباً لأعدائهم واعلاناً عن عزمهم على القتال . وكانوا أحياناً ما يقتلون ضحيتهم في وضح النهار ، مضاعفة في إذلال أسرته ، وهم مطمئنون تماماً الى أن أحداً لن يجرؤ على أن يشي بهم ، ولم يكن أهل قريتنا جبناء ، غير أن المال علمهم أن يكونوا أكثر حرصاً على حياتهم وحياة أبنائهم ، أما أسرة الجرابيع فلم يكن لدى أفرادها ما يحرصون عليه ولا حتى على أرواحهم .

الحادث :

خشخشة مريبة ، تنبه ، أرهف أذنيه ، ليست حفيف الريح تذرو بقايا التبن . قدماه العاريتان تلمسان بقايا التبن التي تغطي ما حول الجرن وتمتد الى مساحات تذوب حدودها في حلكة الليل . أيقظ أخاه الأصغر في صوت مسموع كأنه بصيص نور يشرخ شحوب الليل :

ـ مهران ، مهران .

انتفض مهران واقفاً مستفسراً :

ـ هل حان موعد نوبتي ؟

ـ لا أنت بالكاد نمت . . لعله حيوان مفترس ، ولعله آدمي مفترس .

انقطعت الخشخشة الآن ، نباح كلاب يصل خافتاً متقطعاً حيث تربض القرية وقد أطفأت أنوارها . السماء صافية ،

والريح نسيم متهافت . الخشخشة ذابت ، ابتلعها شحوب الليل . لا قمر ولا هلال ولا محاق ، لكن ثمة نجوم . . تتناثر خافتة متلألئة ، تسكب أشعتها الضنينة ، فتبدو ـ ولا تبدو ـ كومة القمح وأخشاب النورج وأحطاب الخص . هذا حصاد شهور ، عرقه وعرق أخيه وأبيه وأمه . . . ينتظران عودتهما في الصباح وقد أدّيا واجبهما كما يؤديانه كل ليلة .

الخشخشة عادت ، ليست وهماً اذن ، سمعهما مهران كما سمعهما هو أول مرة وثاني مرة ، ومن بعيد بدت كتلة من الأشباح المتحركة المتقدمة . إذن فهم ليسوا واحداً ، وإذن فهم آدميون مفترسون . وكان محمود قد سحب بندقيته الميزر وعبأها ثم صاح في صوت اختلط فيه التوجس بالشجاعة :

ـ من هنـاك ؟

لم يرد عليه سوى حفيف الريح . وكان هو وأخوه قد اتخذا من أخشاب النورج ساتراً يحميهما من أي غدر متوقع . وظلت الكتلة المتحركة تتقدم في سواد الليل الباهت . إذن فقد وضحت نياتهم ، فصاح للمرة الأخيرة :

ـ من هنـاك ؟

ثم غيّر مكانه بسرعة حيث انبطح خلف الجرن ، وأطل برأسه مع بندقيته ، ثم صوب وشد الزناد .

لم يكن ثمة مفر مما وقع . انبعث مع الرصاصة صفير حاد مقتضب وهي تشق الصمت المعتم . وقد نفذت الى أنفه رائحة البارود . لعلهم في القرية قد سمعوها . الخفراء يجوبون شوارعها الآن لكنهم لا يجرؤون على الخروج الى العراء . لم تكن الطلقة محددة الهدف ، لم يكن يقصد الا الاعلان الواضح عن نيته في الدفاع حتى الموت عن جرنه وانه موجود ومستيقظ ومتنبه . كيف يسرقون جرنه وهو حي ، ماذا عساه يقول لوالديه ؟ كيف يواجه فاطمة ؟ شم الآن رائحة عرقه وهو يسيل من تحت أبطيه متلكئاً في خط متعرج ، يلفحه الهواء تحت جلبابه الواسع الفضفاض فيحس لسعة برد خفيفة تجتاح جسده . . . قشعريرة لا يدري ان كانت برداً أم انفعالاً . كان يتمنى أن يعرفوا عبث محاولتهم فيعودون من حيث أتوا أو يبحثون عن جرن آخر بلا حارس . لكنهم استمروا في تقدمهم الحذر البطيء . إذن فهم يعرفون أنه هناك ، وقد بيتوا النية على اغتصاب جرنه . هل تراه أبو العينين الجربوعي وعصابته من قرية طناش الجبل التي ترقد في حضن الجبل تحسد قريته على زمامها الخصب ؟ أم تراهم من البدو الذين يسكنون الجبل ، لا يعرف أحد مكان سكناهم على وجـــه التحديد ، لكنهم يشاهدون وهم يتدحرجون هابطين الجبل نهاراً يحملون أكياس ملح اقتطعوه من برائن الكتل الصخرية .

ازدادت أشباحهم قرباً ، لعلهم ثلاثة ، بل اثنان ، لا بل ثلاثة . ينفصلون ويتصلون وينفصلون . وأطلق رصاصته الثانية ، وكانت في المليان هذه المرة . وأعقب صفيرها الحاد صرخة خاطفة أشد حدة . وتأهب محمود ومهران لأي شيء حتى الموت ، ودّع محمود فاطمة ووالديه ونطق بالشهادتين . فلما لم يتلق رد فعل سريع قرأ الفاتحة وتأهب لاستقبالهم . فلا بد أن يأخذ بثأره ميتاً قبل أن يأخذوا بثأرهم . وصوّب بندقيته سريعاً نحوهم ، لكنه رآهم يحملون جريحهم ـ فيما يرجح ـ ويهرولون به مبتعدين . إذن فلم يقتل مصابهم وإلا لجنّ جنونهم وما انشغلوا في محاولة انقاذه . وأحس براحة تجتاحه ، سيخفف هذا من نتائج فعلته ، فلو أن المصاب مات لما انتهت المسألة عند هذا الحد ، سيتربصون به حتى يأخذوا بثأرهم . سيكون اعجاب والديه بشجاعته مقروناً بلوم أو تأنيب . لماذا لم يعالج الأمور بطريقة أكثر حذراً ؟ ماذا يمكن أن يتصرف أي شخص آخر في مكانه ؟ لم يكن أمامه إلّا أحد أمرين : أن يفعل ما فعل وهو الذي نبههم الى وجوده ، والى أنه متنبه مستعد لملاقاتهم ، لكنهم ـ فيما يبدو ـ استصغروا شأنه وشأن أخيه واستغلوا عزلتهما ، فأثبت لهم العكس . أما التصرف لآخر فهو أن يترك لهم الجرن يسرقونه .

ما بعد الحادث :

في الصباح ـ بعد يومين ـ دقّ باب الحاج مكاوي ثلاثة غرباء رفضوا التحية والسلام ، أو الافصاح عن شخصياتهم .

ـ ابنكم محمود قتل ابننا حمدان والقاتل يُقتل .

ـ متى كان ذلك ؟

ـ لا داعي للانكار .

ـ من قال لكم ذلك ؟

ـ الخبر شائع على كل لسان .

ـ محمود كان يسقي البهائم في الحوض القبلي وعاد بها في الليلة التي تتحدثون عنها .

ـ بل كان في الجرن ليلتها .

ـ بل لم يكن .

ـ إذن بيننا وبينكم البشعة .

ـ الولد صغير ولا . . .

ـ لكنه ليس صغيراً أن يقتل . . .

ـ لم يقتل . . .

ـ لا فائدة من الكلام ، قلنا البشعة بيننا وبينكم .

وهكذا أجبر الحاج مكاوي على الرضوخ .

بعد ثلاثة أيام شدوا رحالهم الى عرب الزاوية في الطريق ما بين قريتنا وساحل البحر الأحمر . محمود ووالده واثنان من أعمامه وخاله الوحيد ، وثلاثة من الجرابيع حسبهم محمود من أقرباء القتيل حمدان ، غير أنه تبين فيما بعد من أفراد عصابته . كلهم مثله في سن الشباب ، ربما لم يبلغ أصغرهم العشرين ولم يتجاوز أكبرهم الثلاثين . وجوههم لا تعبّر عن شيء . الحاج مكاوي يتساءل في حيرة عن مدى بجاحة هؤلاء المجرمين : يريدون أن يسلبوا الناس أموالهم ولا يعجبهم أن يدافع الخلق عن أنفسهم . . . قرص الشمس يقترب من الأفق الغربي ، فاستطالت ظلال القافلة باهتة على رمال الصحراء . كانت تتكون من خمسة جمال : ثلاثة عليها محمود وأقرباؤه ، استعاروها من جيرانهم ، والجملان الآخران يحملان أفراد العصابة . وحين أصبحت الشمس أكثر انخفاضاً وأشد احمراراً ، والظلال أكثر استطالة وأقل قتامة ، كانوا قد وصلوا الى نزلة الزاوية ، فأناخوا جمالهم في باحة تناثرت حولها بضع خيام وأكواخ من خليط من القش والصفائح ، وخرج لاستقبالهم شيخ القبيلة من خيمة لا تتميز عن بقية الخيام المضروبة حولها الا بامتداد سقيفة من القماش أمامها مقامة على أربعة أعمدة خشبية . وبقدر الترحاب الذي قوبل به أفراد العصابة حتى لكأنهم بين أهليهم ، بقدر ما أحس محمود وأقرباؤه أنهم في مكان غريب معاد ومزدحم بالمفاجآت . ثم تولى أحد البدو نزع سلاح الفريقين ليضعه في خيمة قريبة . جثا الجميع في شبه حلقة متسعة على رمال صحراء ذات ليل خريفي ، محمود وأقرباؤه في جانب وأفراد العصابة في الجوانب المواجه ، وقد انضم الى الحلقة رجال القبيلة الصغيرة . وكانت تتوسط الحلقة حفرة صغيرة ضحلة بها آثار وقود محترق دلالة على سبق استخدامها في مناسبات مماثلة . وقد تقدم الآن من أحضر وقوداً وضع بعضه فيها واحتفظ بباقيه ـ كاحتياطي ـ على جانب منه . ثم وضع قالبين من طوب على جانبين متقابلين من الحفرة بحيث يسمح للريح أن تغذي النيران ولا تعاكسها . ثم أحضر طاسة حديدية مستديرة قطرها في حدود الشبر ذات يد واحدة خشبية تشققت بفعل الحرارة المتكررة وحال لونها ـ شأنها شأن الطاسة الى لون كـابـ .

أشعل البدوي الوقود وما لبثت ألسنة اللهب أن ارتفعت بفعل ريح هينة ، ثم وضع الطاسة فوق اللهب بحيث تكاد ألسنته الزرقاء تمسها ولا تمسها ، وهو ممسك بمقبضها الخشبي ، يقلبها حتى يعرضها للهب من جانبيها . وما لبث وهجها أن شع شيئاً فشيئاً في غبشة المساء حتى أصبح أحمر قاتماً كالجمرة المتقدة . وبالرغم من ذلك ، وكأنما لكي يثبت أنه لم يغش طرفاً على حساب طرف آخر ، فانه صوب الى الطاسة بصقة تبخر رذاذها ربما قبل أن يمس الطاسة . واستدعى محمود أمام النار فتراقص لهبها على وجه بدا ثابتاً شجاعاً . وسأله شيخ القبيلة بصوت مرتفع :

ـ قتلت حمدان الجربوعي ؟

فأجاب في اقتضاب ولكن بصوت واضح :

ـ مجتلتـوش .

عنـدئـذ جثا البدوي وقد نصب جذعه فأصبح في مستوى محمود الذي كان جاثياً منتصب الجذع ، وقرب الطاسة المتوهجة من وجهه ـ وقد أدار مقبضها الخشبي الى أسفل ـ كما تقرب الحسناء مرآتها من وجهها . كان الصمت يجثم الآن ثقيلاً كثيفاً كأن الجمع المتحلق يمارس

طقساً وثنياً مقدساً لا يجرحه من حين لآخر إلا هفيف ريح هينة تربت على ألسنة اللهب لتشرئب متوهجة لحظة أو بعض لحظة . وفجأة صاح شيخ القبيلة آمراً محمود أن يخرج لسانه ، وفي هدوء أخرج محمود لسانه ليمرره من أسفل الى أعلى على سطح الطاسة على مرأى من المشاهدين ، كان الوهج كافياً وحده لاغراق وجه الشاب في صهد يشبه الحريق . ومع ذلك فحين طلب منه أن يخرج لسانه مرة أخرى لم تظهر عليه أية آثار ، تولى عملية الفحص أولاً شيخ القبيلة ثم زحف محمود على الرمال على ركبتيه متجها نحو أفراد العصابة ليستوثقوا بأنفسهم مما تحقق منه شيخ القبيلة . وحين عاد الى مكانه بجوار النار أعلن الشيخ حكمه : أشهد الله أن محمود أبو مكاوي بريء . فظهر الوجوم والامتعاض على فريق العصابة ، بينما سرت همهمة ارتياح بين أقرباء محمود ، والحاج مكاوي يردد في شبه عصبية : ظهر الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً . ظهر الحق وزهق الباطل . . . وطلب محمود كوب ماء ليبلل به طرف لسانه ، ثم ما لبث أن احتساه على مهل وهو يرشفه رشفاً .

وقد دعا شيخ القبيلة الفريقين الى العشاء ، غير أن الحاج مكاوي اعتذر بلطف لأن مشوارهم طويل والوقت قد تأخر . كان يريد في الواقع أن يسرع بابلاغ النبأ السار الى أم محمود ، وإن كان ما يزال يتوجس في مدى تمسك تلك العصابة بما أعلنته البشعة الليلة .

الجريمة وما بعدها

فى الظهيرة ، بعد أسبوع ، كان محمود وأبوه في الحقل ، نفس المكان الذي كان فيه محمود ليلاً منذ أيام ، ولم يتبق من الجرن الآن إلا بقايا قشور الحب من آثار التذريه . . . حين سمع دوي طلقة أعقبتها صرخة من محمود كلها لوعة وهو يحتضن أباه صارخاً : جتلوني يا بوي ، جتلوني يا بوي ، وهو يرفرف رفرفة الدجاجة الذبيحة وأبوه يحتضنه وهو ينظر الى الأفق البعيد حيث لمح الجناة ينسحبون مهرولين . إذن لم يكن غرضهم من البشعة أن يقبلوا تحكيمها بل أن يتعرفوا على وجه محمود ، وأن يتعقبوه ، وأن يفجأوه ـ هؤلاء الجبناء ـ من الظهر ، فلم يجرؤوا أن يواجهوه . وما لبث أن خارت قوى الشاب حتى ثقل جسده الدافيء وهو ما يزال في حضن أبيه وبين ساعديه ، كما خارت قوى أبيه فلم تقو ساقاه على حمله كما لم تقو ذراعاه على حمل ابنه وهو يدرك شيئاً فشيئاً هول ما حل به ، بينما نزيف الدم الذي كان قد تفجر من ظهر محمود ولطخ ثياب أبيه كان الآن قد أخذ يتلكأ ويتخثر حتى انقطع وهمد الجسم . وكان الجيران قد تجمعوا من الحقول المجاورة على أثر سماعهم طلقات النار ، ومشاهدتهم محمود وهو يصارع الموت . بينما حاول فريق اللحاق بالقتلة ، غير أنهم أطلقوا النار وهم يفرون هاربين حتى اختفوا عن الأنظار .

وفي العصر دفن محمود . عبرنا الخور الذي طالما لعب فيه محمود في طفولته مع أصدقائه ، ثم واريناه التراب في القرافة الخاصة بنا نحن الجزايره ، والتي تقع في سفح الجبل المطل على قرية طناش ، حيث تسكن أسرة الجرابيع التي لا يأتينا منها إلا الشر كل الشر . عند عودتنا حرصت أن أكون برفقة مهران مواسياً . لم يذرف دمعة واحدة على أخيه منذ سمع النبأ الفاجع حتى فارقناه في منتصف الليل .

في المساء ، لم يكن هناك سرادق ولا تقبل عزاء في بيت الحاج مكاوي ، بل تجمع كثير من شباب جزيرتنا ـ بعضهم أقرباء محمود وبعضهم أصدقاؤه ـ ليقرروا الأخذ بثأر جزيرتنا . وحضر عمدتنا الشاب . لم يناقشهم ليلتها لأنه كان يعلم مدى الثورة التي تجتاحهم وقد وقع الحادث ظهر اليوم ودفنت ضحيته عصراً . لكنه حضر ـ ولا بد ـ بحكم مركزه ومشاركة منه لمشاعر أسرة محمود ومشاعر أصدقائه الملتهبة ، وربما حتى تكون هناك أرضية مشتركة حين يدور حوار بينهم وبينه في يوم من الأيام .

وقد دار ذلك الحوار بأكثر من طريقة وفي أكثر من مكان . كان عمدتنا ينصح جدعان قريتنا بعدم الاندفاع والتهور وعليهم أن يسألوا أنفسهم أولاً وقبل أن يقدموا على أي تصرف ، هل سيؤدي هذا التصرف الى اسكات الآخرين ، أم سيكون مجرد حلقة أخرى في سلسلة لا تنتهي ؟ فتتزاحم عليه الاجابات المحتجة .

ـ وهل سكوتنا سيؤدي الى كسوفهم أم يضاعف شهيتهم ؟

ـ بل سيتهموننا بالجبن والضعف .

ـ ستمضي إذن جريمتهم بلا عقاب .

ـ لن نعرف كيف نحمي نساءنا وأطفالنا بل وكبارنا .

ـ لن نستطيع أن نرفع رؤوسنا بعد اليوم ، سيطمع فينا الصغير قبل الكبير

بل يجرؤ صوت أن يرتفع ساخراً :

ـ يبدو أن عمدتنا يريد أن يذهب الى أسرة الجرابيع حاملاً لهم كفنه مسلماً نفسه الى كرمهم مع أن القتيل قتيلنا .

بل صاح آخر ذات مرة بكلمات لا يخفى ما بها من تهديد :

ـ حتى لو كان القتيل قتيلهم ، فسنقتل من يفعل ذلك منا .

ومع ذلك فان عمدتنا لم ييأس . كان يشعر أن له رسالة في هذه البقعة الصغيرة من الأرض ، وأن الطريق أمامه ليس سهلاً ، وأن رياح التغيير لا تتم من خلال حوار . هو نفسه ـ قبل أن يغادر قريته ـ كان يؤمن بما يؤمنون ، بل هو نفسه عندما عاد بعد غربته واستنشق رائحة التراب المختلط بروث البهائم كما يستنشقون ، وأكل البتاو الذي يأكلون ، وليس الجلباب كما يلبسون ، أحس أنه يلبس أيضاً تفكيرهم ، تفكيراً ليس غريباً عنه ، فقط غاب عنه فترة كما غاب عن جلبابه ثم عاد اليه . هنا أدرك لماذا اختلف عنهم ولماذا يحس بغربته في قريته وسط أهله ، وكيف يمحو هذه الغربة : إما أن يكون مثلهم وإما أن يكونوا مثله ، وبغير ذلك ستظل نفسه منقسمة على نفسها ، قدماه مغروستان في تراب قريته وروث بهائمها ، وعقله وفكره مشرئب نحو سماء العاصمة ، يستنشق دخان مصانعها وعادم سياراتها ويستعيد جلسات أصدقائه الطلبة ومناقشاتهم حول السكن والمستحيل .

قصد أولاً خطيب الجامع ، رجلاً لم يجاوز الأربعين ، من أصل غريب عن القرية وان كان قد استوطنها . عندما طلب منه معاونته في مكافحة عادة الأخذ بالثأر سرعان ما وجد تجاوباً منه ، معلناً أن الاسلام يدع القصاص لولي الأمر ، ووعده ألا يدع فرصة سواء في خطبه بالجامع أو في حديثه بين الناس إلا وأوضح موقف الدين من هذه العادة الجاهلية .

وفي الوقت نفسه اتصل ميهوب بالسلطات ، بالمركز والمحافظة . لاقناعهم بافتتاح مدرسة اعدادية في قريتنا بجانب المدرسة الابتدائية وأيضاً لاقناعهم بانشاء مدرسة ابتدائية في قرية طناش الجبل . فلم تكن بها أية مدارس ، وكان على الأسر الحريصة على تعليم أبنائها هناك ـ وما أقلها ـ أن ترسل أطفالها الى جزيرتنا ، يذهبون ويعودون على ظهور الحمير ، وكانت مخاوف الطريق كثيرة من بينها ـ إن لم يكن أهمها ـ ما بين الأسر من ثأر يغري بخطف الأطفال أو حتى قتلهم كما حدث ذات مرة . وبقدر ما لقي اقتراحه بافتتاح مدرسة اعدادية في قريتنا قبولاً وارتياحاً بل تحمساً ممن كانوا يرسلون أبناءهم الى مدارس المركز ليواصلوا تعليمهم ، بقدر ما لقي اقتراحه بافتتاح مدرسة ابتدائية في قرية طناش الجبل معارضة شديدة . فكيف يخدم قرية العصابات والقتلة ؟ وهل بهذا يأخذ ثأراً لنا لم تجف دماؤه بعد ؟ لكن الرجل مضى في مشروعه لا يأبه للمعارضة التي بلغت حد التهديد أحياناً . فما بدأ العام الدراسي حتى كان هناك فصل للأولى الاعدادية قد ألحق بالمدرسة الابتدائية في قريتنا ، ومدرسة ابتدائية كاملة قد أنشئت في قرية طناش الجبل .

وكان عمدتنا يعلم أن وجود مدرسة ليس سبباً كافياً لتدفق الأطفال عليها ، ففي جزيرتنا مدرسة ابتدائية منذ عشرة أعوام ، ومع ذلك فلا ينتظم فيها الا عدد قليل بالنسبة لمجموع أطفال الجزيرة لأن أهلهم يحتاجون اليهم في كل موسم من مواسم زراعاتهم . لهذا كان لا بد من محاولة رفع مستوى معيشتهم ـ كما هو الشأن في المدينة ـ حتى يمكن الاستغناء عن الأطفال في مرحلتي الدراسة الابتدائية والاعدادية على الأقل . فدعا كلا القريتين الى اقتناء مناحل لتربية النحل واستخلاص عسله . وتعهد لكل من يشتري صندوقاً للخلايا أن يمده بملكات النحل بعد أن يرسل في شرائه من العاصمة . وسرعان ما تعلم فلاحونا هذه الصناعة الجديدة ، وأصبحت كالعدوى يقلد فيها كل جار جاره لما تدره من دخل اضافي ، تعلموا كيف يزودون الخلايا بالاطارات الخشبية حتي يتيحوا للنحل أن يبني أقراصه فيها . ثم أعلن عن مشروع للأنوال اليدوية لنسج أقمشة وسجاجيد حائط . وظهرت مواهب أبدعت فى الرسم والعمل بعد أن استجلب عمدتنا مدربين

لهم من أخميم بأقصى الصعيد . وسمعنا أن العدوى انتقلت الى بعض أسر قرية طناش الجبيل وإن كان على نطاق ضيق .

واستطاع الشيخ زهران ابن عم العمدة اقناع المسؤولين عن الوحدة المجمعة بتحويل قاعة الوحدة مساء الى قاعة للسينما ، وتولى هو تدبير مقاعدها . تبرع هو والعمدة بحوالى نصف ثمنها والقادرون بالقرية بالنصف الآخر . وكان يوم الافتتاح يوماً مشهوداً لا ينسى في تاريخ قريتنا .

وفي الصيف حوّل الطلبة مدرستهم الابتدادية والاعدادية الى ناد لهم ، كل من يفرغ منهم ـ وبعضهم يزوغ ـ من عمله مع أهله في الغيط أو المنحل أو النول يسرع الى النادي الذي زودوه بألعاب البنج بنج والطاولة والكوتشينه . . . الخ .

وتحمس الطبيب البيطري بالوحدة لمشروع تربية أبقـــار الفريزيان بالقرية . وبينما كان يعرض اقتراحه ـ لـ « مضاعفة الثروة الحيوانية » على حد تعبيره ـ على عمدتنا وأعيان القرية ، سرت اشاعة في جزيرتنا ذات يوم أن أبو العينين الجربوعي قتل في عز الظهر على الطريق الزراعي المفضي الى الخور شرقي البلدة . وخرجت القرية كلها نحو مكان الحادث ليروا مهران أبو مكاوي يرقص بعصاه مغنياً في فرح شبه جنوني :

نـصـفـنـــي زمـــانـــي وخــــــدت تـــــاري
غـسـلــت عـــــاري بــــردت نـــــاري

والى جواره أبو العينين الجربوعي ملقى على الأرض ممدداً على ظهره ورأسه تشخب دماً . وعندما تأملوه وجدوا أن الحياة ما تزال تدب فيه وان كانت عيناه شبه مطفأتين . ورأوه يمد يده في جيب جلبابه فتوجسوا خيفة ، لكنه أخرج لدهشتهم علبة دخانه التي تحوي تبغة وورق البفـــرة . لف سيجارة ثم ألصق الورق الشفاف الرقيق بلعابه ، ثم أخرج علبة كبريت وشط عوداً أشعل به سيجارته ، ثم مضى يدخن بشراهة ملحوظة كأنما لم يدخن منذ شهور ، وينفث دخان السيجارة بكثافة من فمه وأنفه ليتصاعد فوق وجهه المتقلص في صمت . وقد ظلت الروح تدب فيه وقتاً أتاح لنسائنا العاقرات أن يخطين فوق جثمانه نصف الحي نصف الميت ، معتقدات أن ذلك من شأنه أن يفتح أرحامهن المغلقة . وكان عمدتنا قد استدعى الشرطة ثم النيابة غير أنهم ما أن وصلوا حتى كان الشقي قد أسلم الروح .

قبضوا على مهران أبو مكاوي الذي اعترف بما ارتكب ، وإن علمنا فيما بعد أن جدعان قريتنا كانوا يتربصون معه بنبابيتهم وعصيهم ، فبين أبو العينين وكثير منهم ثأر ، وقد كاد يفلت منهم لولا أن خوفهم من بطشه منحهم مزيداً من القوة والتصميم ، فواصلوا ضربه بالعصي والنبابيت على رأسه ـ تماماً كما تضرب الحية ـ حتى ترنح وسقط على الأرض . وقد رجا مهران شركاءه أن يتركوه يتحمل وحده المسؤولية ، فقبض عليه واقتيد مكبلاً الى سجن المركز ، مشيعاً بزغاريد أمه .

في المساء أقيم سرادق صغير أمام بيت الحاج مكاوي تتقبل فيه الأسرة العزاء في محمود ، ولكنهم كانوا يوزعون الشربات بدلاً من القهوة .

شخص واحد في قريتنا تردد في الذهاب الى الحاج مكاوي معزياً أو مهنئاً . كان يدرك أن هذه العصي والنبابيت موجهة الى محاولاته ومحاولات مؤيديه . كان يحس ليلتها بالوحدة والغربة وأنه في محنة عليه أن يتجاوزها وألا يدع للاحباط سبيلاً وأن يتماسك ليواصل ما بدأ . ونظر حوله فرأى أنه حتى أمه وأخته وزوج أخته كأنما قد ارتفعت روحهم المعنوية وعادت الثقة الى نفوسهم بعد أن كانت رؤوسهم منكسة منذ مصرع محمود . إذن فقد خذله الجميع . شخص واحد وقف الى جواره يشجعه وإن كان خائفاً عليه : وهو زوجته . كانت تحثه على أن يبقى هنا ويواصل رسالته ، وفي دخيلتها كانت تريده أن يفر من هذا المكان وأن ينجو بنفسه . وأخيراً قرر قراره على أن يذهب الى الحاج مكاوي برفقة شابين من صحابه .

هل تسرّع عمدتنا وحاول أن يسبق الزمن حين أعلن لجمهور المعزين المهنئين أنه سيقصد خلال أيام أسرة الجرابيع حاملاً معه كفنه ليضع حداً لهذه السلسلة المتصلة من الانتقام . فوجم الرجال . وأثناء عودته حاول رفيقاه أن يقنعاه ـ بمنطقه هو ـ

بالعدول عن تنفيذ ما أعلنه ، فأمثال هذه المحاولات مجرد اندفاعات عاطفية تتم تحت تأثير أحداث مؤقتة ، والحل الوحيد هو أن تقترب القرية من المدينة ، فيلجأ الناس الى الحاكم في فض منازعاتهم .

النهايـة :

لا يعرف أحد من قتل عمدتنا . هل هم عصابة الجرابيع انتقاماً لمصرع زعيمهم ، فصمموا على أن يأخذوا بثأره من أكبر رأس وأرجح عقل بقريتنا ، فراح ضحية مبدأ كان هو أول الواقفين ضده .

فاذا أردنا أن نستبعد العبثية فلا بد أن يكون قتلته من جزيرتنا ممن يقفون ضد كل ما هو جديد ومفيد ، يخشون أن يصبروا لئلا تثبت الأيام خطأ تفكيرهم ، فقضوا عليه قبل أن يقضي على فكرهم .

كان خارجاً من بيته في طريقه لصلاة الفجر بالجامع القريب من بيته ، حين أطلق عليه مجهول طلقة رصاصة واحدة من مسدس كاتم للصوت في طريق لا تدب فيه قدم في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ، فلم يُكتشف الحادث إلا بعد فرار الجاني أو الجناة . وقد بكته القرية كلها ، أحباؤه وأعداؤه على حد سواء . وكانت جنازته مشهداً رهيباً قل أن يتكرر في قريتنا ، شارك فيها مشيعون من جميع القرى المجاورة .

لقد ظن البعض أن كل شيء سيتوقف بعد مصرع عمدتنا ، لكن الطلبة ظلوا يذهبون الى مدارسهم ، وواصل النحالون رفع الأقراص الممتلئة بالعسل ووضع أخرى فارغة مكانها ، بينما استمرت الأنوال تنسج أقمشتها وسجاجيدها ، وأنجبت أبقار الفريزيان جيلاً ثانياً وثالثاً .

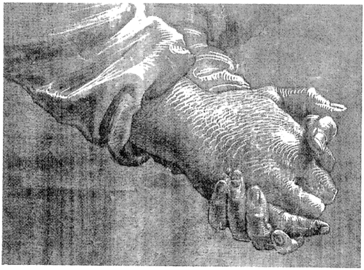

البرشت ديرر ، يدان ، ڤينا ، النمسا .

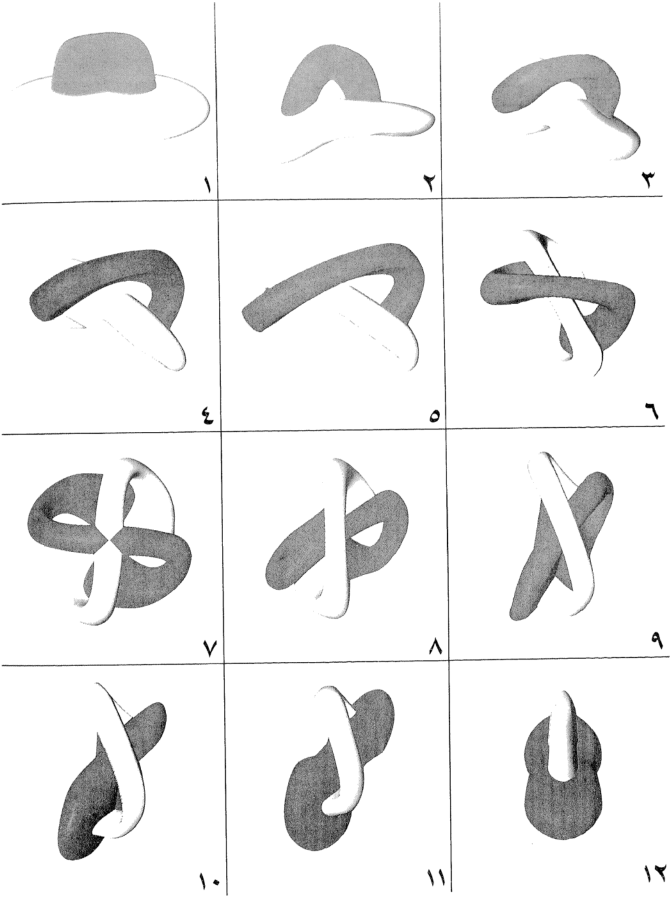
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢

بنّو إكمـان

الرياضيات في العصر الحديث

تقوم الرياضيات في الوقت الحاضر بثلاثة أدوار ؛ أولاً : كأداة هامة لا يمكن الاستغناء عنها في عالم العلم والتكنولوجيا ، ثانياً : كمنهج عمل للبحث عن الحقيقة الموضوعية في اطار محدد ، ثالثاً : كفن من الفنون أو كجزء من التراث الحضاري غير المرئي . والنص التالى هو مضمون محاضرة ألقيت في الجامعة الهندسية الفيدرالية في زيوريخ يحاول فيها أحد الرياضيين القاء الضوء على تلك الجوانب وعلى التفاعل بين هذه الأدوار المختلفة .

من كان يعتقد قبل عقدين من الزمن أن المفاهيم الرياضية المتخصصة وطرق التفكير الرياضي سوف تقتحم يوماً ما ميدان الحياة اليومية بل وستدخل اللغة العامية ولغة الصحافة ، ولا يقتصر الأمر على استخدام بعض التعبيرات الشائعة مثل «القاسم المشترك الأعظم» ، بل يشمل مفاهيم أخرى مثل «العمليات المنطقية Logische Operationen» ، و الدوال المعكوسة inverse Funktionen ، و«النمو الأسي» ، و«نظرية الكم Mengenlehre» ، و الجبر التحويلي Schalt-Algebra والبرمجة . . . الخ .

من خلال العديد من الأشياء التي أنجزها العلم وحققتها التكنولوجيا تبرز البنية الرياضية في شكل واضح ، ويزداد باستمرار عدد الناس الذين لا يتحدثون عن الرياضة فحسب ، وانما يستخدمونها أيضاً كأداة في عملهم اليومي : في البناء والتصميم ، في الاحصاء ، وفي اتخاذ القرارات . ويتساءل هؤلاء جميعاً بدون استثناء : أهناك جديد في ميدان الرياضة ؟

نعم ، ان الرياضة تتغلغل الآن في جميع ميادين العالم الحديث ، بل وقد أصبحت من وجهة نظر الرأي العام شيئاً هاماً . وبايجاز فالأضواء تسلط على الرياضيات بصورة لم تعرفها في تاريخها الطويل ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماذا يعرف الناس حقيقة عن الرياضيات ؟

قمة جبل الثلج

عُهد اليّ بمناسبة يوم الجامعة أن أتحدث عن الرياضيات ، وهذه مهمة صعبة ، فالرياضيات ليست من الموضوعات الشيقة التي تتناولها وسائل الاعلام ، نعم إن هناك أيضاً في هذا المجال الكثير من الجوانب المثيرة أو الممتعة التي يمكن الحديث عنها ، ولكن هذا يبعدنا عن صلب الموضوع . من غير الممكن شرح عمل عالم الرياضيات بدون الدخول في موضوعات رياضية ، بل ومن المستحيل في هذا الاطار المحدود أن نعدّد مجالات الرياضة التي تزداد في الآونة الأخيرة عمقاً واتساعاً (ولنذكر على سبيل التوضيح أن عدد صفحات مجلة «العلوم الرياضية» قد وصلت عام ١٩٧٧ الى نحو ٢٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد حوت ملخصات لنحو ثلاثين الفاً من الأبحاث المنشورة في نحو ستين فرعاً من فروع العلوم ، وكذلك فعلى سبيل المثال يضم قسم الرياضيات التابع للجامعة التكنيكية الفيدرالية في زيوريخ ثلاثين أستاذاً في مختلف التخصصات الرياضية ، ابتداء من الرياضة البحتة الى الرياضة التطبيقية ، ومن العاملين في مجال التدريس وفي مجـال البحوث) .

وكما ذكرت فمن الصعب على غير المتخصصين أن يدركوا ما هي الرياضة ولماذا تحظى الرياضيات بكل هذا الاهتمام .

▶ دوائر هندسية متسلسلة .

فالرياضة بشكل ما شيء غير ملموس ، غير مرئي ، فما نراه منها تحت الضوء وما يطبق منها وما يدرس منها على جميع المستويات ليست إلا قمة جبل من الثلج ، ولعل من معالم عصرنا أن هذه القمة تبرز بوضوح شديد عنها في أي وقت مضى . أما ما لا نراه من جبل الثلج تحت الماء فهو أكبر وأعظم مما يتخيله الانسان . ان هذا الجبل يغوص في الأعماق الى حيث لا نعرف أين ينتهي .

أهم فروع الجزء الظاهر من الرياضيات هي : التطبيقيات العملية ، والحاسب الالكتروني ، والرياضة المدرسية .

نصادف **التطبيقيات الرياضية** في كل مكان ، اعتباراً من تصميم المنشآت وحساب الأرصدة الأوتوماتيكي ، والمعدات التكنولوجية ، وأنظمة اتخاذ القرارات الاقتصادية والسياسية حتى أكثر النماذج تعقداً في ميادين البحوث الفيزيائية والبيولوجية ، بل ويشمل الأمر العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية والنفسية ، ويتجلى الذكاء في صياغة الموضوعات في قالب رياضي ، ومن المعلوم أن صياغة المسائل العملية بطريقة رياضية يساهم عادة في انجاحها ، ولعله أيضاً من المعروف أن مثل هذه الصياغة بلا جدوى في الحالات التي لا تصل فيها الرياضة الى مستوى المسائل المطروحة للبحث وكذلك في الحالات التي لا تتناسب فيها الصياغة الرياضية مع طبيعة الموضوع المطروح للبحث . ولكن كثيراً ما يغفل البعض هذه البديهيات . **الرياضة هي دائماً تكوين تجريدي** وليس لنا أن ننظر الى هذا التكوين كما لو كان هو الواقع الذي استخلصنا منه هذا التكوين عن طريق التجريد ، أو الذي نسقط عليه هذا التكوين . والأمر أشبه في ذلك بخريطة طوبوغرافية ، فمهما كانت عليه هذه الخريطة من كمال فهي ليست الطبيعة ذاتها التي تصفها هذه الخريطة . ولا يعني هذا أن نحدد مسبقاً أو من البداية ما هو المقصود بمصطلح «الواقع» في كل حالة من الحالات .

أيا كانت مستويات التجريد التي أدت الى «الواقع المعني» ، فان الوصول الى الصياغة الرياضية قد تبعدنا من جديد كثيراً عن الهدف الأصلي ، وعلى الرغم من ذلك فقد يكون ذلك عظيم الدلالة والفائدة .

نكاد نصادف **الحاسب الالكتروني** في جميع المجالات بحيث لا يتطلب الأمر هنا نقاشاً ما ، فهذه الحاسبات ليست هي الرياضة ، ولكنها نبعت من الرياضة بالاشتراك مع الامكانيات التكنولوجية الدقيقة في مجال الالكترونيات ، وهذه الحاسبات توسع بشكل ما من قاعدة التفكير الرياضي ، نظراً لبنيتها المنطقية الداخلية ولأهميتها في البرمجة ، وفي لغة الحاسبات المتطورة ، ولأنها تسهل جميع العمليات الحسابية على جميع المستويات .

وبالمثل فان «**الرياضة الحديثة**» التي تُدرّس في المدارس قد عممت جزءاً من الفكر الرياضي وفرضته على قطاع كبير من الناس ، وهذا أمر ايجابي الا أنه يعطي صورة منقوصة للعلوم الرياضية . وسنعود الى الحديث عن ذلك فيما بعد .

بنيـــات وبديهيـــات

وأنتقل الآن الى الجانب غير المرئي من الرياضيات ، وبديهي أني لا أستطيع أن أحوله الى شيء مرئي ولكني أستطيع الحديث عنـه .

أعود الى ذلك التطور الهام في ميدان الرياضيات الذي بدأ في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن والذي بلغ قمته في ذلك العمل الموسوعي الذي وضعه بورباكي Bourbaki . في ذلك الحين تم التحول **من النظرة الكلاسيكية** التي تعتمد على **الأعداد الكاملة الحقيقية الى النظرة الحديثة** التي تعتمد على **مفهوم البينة** . في هذا المنظور الجديد يشكّل المكان والعدد حالات خاصة ، وبالمثل كذلك «مفهوم المجموعة» Gruppenbegriff والمنطلق في هذه الحالة هو الكم Menge ، ولكل كم بنية Struktur تقوم عليها ترابطات بعينها . وتتشكل البنيات **الجبرية** وفقاً للعمليات الحسابية **العددية** ، أما البنيات **الهندسية** فتتشكل وفقاً لمقتضيات **الحيز المكاني** ، هذا بالاضافة الى الكثير من الجوانب الأخرى وخاصة فكرة الاستمرار أو التوالي ، وعادة تراعى في ذلك الكثير من الحالات الفردية التي تجرد من صفاتها الخاصة . وحيث يتعلق الأمر بتفاعل الكثير من المتشابهات ، فان مفهوم البنية يوحد من هذا التعدد . ومن أجل التعرف على **السبب العميق** للكثير من الظواهر المعروفة يستطيع الانسان بهذه

الوسيلة أن يصل الى معارف جديدة وأن يبتكر بنيات جديدة ، عادة ما تكون في البداية غير مألوفة وشديدة التجريد ، إلا انها بمرور الوقت تصبح ملموسة ، خاصة عندما تيسر بدورها استخدامات جديدة ، ومن ذلك يتضح أن الكثير من الموضوعات المألوفة مثل «الحيز» Raum و«الرقم الحقيقي» Reelle Zahl ليست ملموسة في واقع الأمر كما قد يبدو من التعود وكثرة الاستخدام ، وهكذا أمكن حل الكثير من القضايا القديمة . لم تطرح الموضوعات الكلاسيكية جانباً وانما بدت الآن في ضوء جديد بعد أن تحررت من قيودها القديمة .

على أن الحرية الجديدة قد خلقت قيوداً جديدة ، وهي تلك التي تسمى **بالطريقة البديهية** axiomatische Methode فهناك قواعد أساسية محددة من أجل تكوين بنية ما وهي «البديهيات» Axiome . والقانون الرياضي الأول هو أن يستخدم الانسان هذه البديهيات ، وما يترتب عليها ولا شيء غير ذلك . ويشبه الأمر في ذلك ما يسمى **بقواعد اللعبة** ، أي تلك القواعد التي توضع والتي يُلتزم بها بعد ذلك في اللعب ، وهذا التشبيه صحيح نسبياً ، الا أنه قد يكون مضللاً ، فالاطار الذي يوضع من خلال البنيات والبديهيات لا بد أن يكون ذا جوهر وجاذبية ، بمعنى أنه لا بد أن يستنبط من المعارف السابقة بطريقة عضوية ولا بد أن يحتوي الجديد وان كان هذا الجديد في مرحلة التكهن ، وتستنبط النظم البديهية عن طريق الخبرة والحدس وإن بدت أحياناً أنها قد وضعت جزافاً ، وتكمن في هذا الجانب غير المعروف نسبياً الكثير من مصاعب الرياضة ، ويكمن فيها أيضاً الكثير من سحر الرياضة : هذا هو مجال التوتر بين الحدس وتعدد الظواهر والتطورات من جانب ومطلب الدقة الصارم من جانب آخر ، أياً كانت الأفكار والآراء النابعة من الاحساس أو لحظات التجلي فان الاطار الصارم المحدد هو في النهاية العامل الحاسم في الوصول الى الحقيقة .

أما فيما يتعلق **بالرياضة الحديثة** في المدارس فانها قد وسعت من نطاق استخدام نظرية الكم وطريقة البديهيات في كثير من جوانب التعليم . ولا جدال ، فان لوضوح لغة الرياضة الحديثة جاذبية لا تقاوم ، على ألا يكون ذلك هدفاً في حد ذاته ، فلا يجب أن يضيع الجوهر المرئي وخاصة الحيز والعدد من جراء ذلك .

مثال من الرياضة البحتة

من الصعب على غير المتخصص أن يلم بالمقصود بتعبير **الرياضة غير المرئية** وأن يدرك المقصود بالمنهج القديم والحديث في الرياضة ، ولذا سأحاول أن أوضح ذلك بمثال من الخبرات المتداولة .

فلنتصور سائلاً متدفقاً لكل نقطة فيه اتجاه حركة ، واذا تصورنا أحد المستويات المارة في ذلك السائل فان اتجاهات النقط المختلفة سوف تكوّن ما نطلق عليه مجال الاتجاهات المستمر . عندما يحاول المرء أن يطابق مثل هذا المجال على السطح الخارجي الكلي «لكرة» فسوف يتبين استحالة ذلك : سوف تتكون انتفاضات أو دوامات أو ما شابه ذلك (واذا حاول المرء ذلك على امتداد دوائر طولية أو عرضية فسوف يواجه ما يُطلق عليه «ظواهر فريدة من نوعها» عند القطب الشمالي والقطب الجنوبي) . وهذه نتيجة هندسية قديمة يمكن اثبات صحتها ودقتها في اطار محدد ، ويوجد مثل هذا المجال على امتداد قوس دائري ، ومن السهل والمدهش في نفس الوقت الاستنتاج الجبري لامكانية وجود مجالات الاتجاهات بصورة واضحة على سطح الكرة الثلاثية الأبعاد «الفراغ الجوي» . واذا أمعنّا النظر فسوف نكتشف وجود قوانين منظمة ، فمثلاً توجد هذه المجالات على أسطح الكرات ذات البعد الفردي ولا توجد اطلاقاً على الكرات ذات البعد الزوجي ، واذا حاول المرء أن يقيم مجالين مختلفين عن بعضهما تماماً (مجالين مشتغلين) فوق الكرات ذات البعد الفردي فسوف يجد بعد دراسات متعمقة أن ذلك ممكن فقط بالنسبة للأبعاد ٣ ، ٧ ، ١١ ، . . . وغير ممكن بالمرة بالنسبة للأبعاد ٥ ، ٩ ، ١٣ ، . . . ، عند هذا الحد أصبح حب الاستطلاع الرياضي متحفزاً للقيام بدوره ، فالآن أصبح المطلوب معرفة عدد مجالات الاتجاه التي تختلف عن بعضها تماماً (المجالات المستقلة) والتي يمكن تواجدها على سطح كرة أياً كان بعدها .

ويمكن صياغة تلك المشكلة على شكل معادلات من النوع الخطي ، لكن هناك رغبة في أن يكون الحل ذا صفة عامة صالحة لجميع قيم المعاملات ، وهذه احدى مشاكل هندسة الاستمرار العامة أو الطوبولجيا .

وفي محيط هذا النوع من المشاكل نشأت نظريات جديدة كثيرة عبر الزمن مثل «الهوموطوبيا Homotopie » والفراغات الخطية Faserräume » ، وحزم المتجهات Vektorbündel ، والأصناف المتميزة ، ونظرية الأنواع Garbentheorie ، والنظرية العامة للمعاملات التفاضلية Differentialoperatoren ، والبنية الجبرية والهندسية للمجموعات الكلاسيكية وغيرها . ويوضح ذلك كيف أن دراسات البنية ذات الصبغة العامة جداً قد فرضت نفسها .وساهمت في ايجاد حلول لمشاكل متعددة ونتج عنها تطورات واضافات جديدة في مجالات أخرى بعيدة كل البعد عن المشكلة الأصلية ، وبالمناسبة فقد تم التغلب على المشكلة الأصلية بعد جهد كبير ، وقد وجد أن الحد الأقصى لعدد **المجالات المستقلة** التي يمكن اقامتها على سطح الكرة يعتمد بطريقة غريبة على **بُعد الكرة** ، وهذا العدد غالباً أصغر بكثير من البعد ويساويه بالضبط في الحالات ١ ، ٢ ، ٧ فقط (كذلك ظهرت قيود غريبة بالنسبة لعدد المجاهيل وعدد المعادلات بالنسبة للحلول العامة للمعادلات الخطية) .

من الممكن شرح هذا المقطع أو هذه الفقرة من فقرات الرياضة لشخص غير متخصص وأن تطلب ذلك جهداً كبيراً ، وقد يبدي هذا الشخص اهتماماً بالمشكلة والحل كما يبديه بالنسبة لأي مشكلة ذهنية تصادفه ، وقد يستطيع تفهم الخطوط العريضة للنظريات والطرق المستخدمة ، لكن عندئذ سوف يقول بعد تردد قصير : «حسناً . . ولكن لماذا كل ذلك ؟ . . .» وقد يعلق متسائلاً أو مداعباً : «أمن أجل ذلك تحصلون على رواتبكم ؟» . . . ولكن قد يأتي بعد عقد أو عقدين من الزمن شخص ما يحتاج الى مثل هذه الأفكار والمفاهيم والنظريات (في مثل حالتنا قد يكون هذا الشخص عالماً من علماء الفيزياء) . وهكذا تطفو الرياضيات المجردة «غير النافعة» من الأعماق الغامضة الى ضوء النهار الساطع .

النظرية والتطبيق

في الماضي قيل عن «جبر بول» Boolesche Algebra انه احدى «هوايات» علماء الرياضة . واليوم لا يستطيع مهندسو الكهرباء أن يعيشوا بدونه ، كذلك ميكانيكا الأجرام السماوية Himmelsmechanik بمشاكلها الرياضية الصعبة - كيف أنها أدهشت الكثير من كبار الرياضة قبل أن يفكر أحد في الأقمار الصناعية . ولنرجع أكثر الى الوراء ونذكر معادلة الموجات Wellengleichung التي درسها علماء الرياضة كثيراً والتي يسرت «لماكسويل» بعد ذلك بناء نظريته واكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية ، أكان يمكن الوصول الى كيمياء الكم بدون نظرية المجموعات Gruppentheorie ؟ . . ان نظرية الآلات الأوتوماتيكية تقوم أساساً على جبر الأصناف Kategorienalgebra وهو يتسم كما تعلم بدرجة عالية من التجريد ، كذلك فان نظرية الكوارث Katastrophen-theorie (والتي كان من الأفضل تسميتها بنظرية الأحداث الفريدة) تربط بين التحليل العام والخاص وبين الهندسة الجبرية ، كذلك علم الاحصاء بفروعه المختلفة - بدءاً من مغزى تجربة عملية الى فك تشابكات رسم كهربي - يقوم أساساً على نظرية الاحتمالات ونظرية الكتلة Wahrscheinlichkeits- und Massentheorie

كذلك المصفوفات التي تدخل في مجال «الطرق العددية» و«التوافيق» و«نظرية اتخاذ القرارات» ، ثم استخدامات الشفرة وحلها - جميعها تقوم على أساس نظرية الأعداد والجبر ، ومن الطبيعي أن هذه التطبيقات قد أثرت النظرية الرياضية الأساسية ومدتها بمزيد من الأفكار والتساؤلات وأعطتها دفعات جديدة نحو التقدم والتطور .

ويمكن أن يطول سرد قائمة التطبيقات وخلفياتها النظرية ، ومن ناحية أخرى فهناك مجموعة كبيرة من النتائج الرياضية التي لم تصل بعد الى حيز التطبيق ، وفي السنوات الأخيرة على

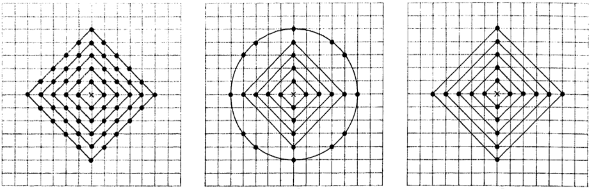

n 1 — n 2 — n 3

دوائر في متسلسل هندسي Taxigeometrie من وضع كينت ابوت . وتشكّل النقط «نقط تقاطع» لشبكية خطية . تقسم المسطح الاقليدي الى مربعات متساوية الأحجام . والمسافة بين نقطتين هي $\sqrt[n]{x^n+y^n}$ ، و n اي رقم عادي و x المسافة الأفقية و y المسافة الرأسية بين النقطتين .

وجه خاص ظهرت نتائج مدهشة في المجالات الهندسية الملموسة والجبرية المجردة ، في نظرية الأعداد . . في نظرية الدوال والمعاملات وفي وضع أساس نظرية الكم ذاتها . لكن بقيت بالطبع معرفة هذه النتائج مقصورة على المتخصصين ، ولا يمكن في اطار هذه المحاضرة تسليط الضوء عليها أكثر من ذلك . ومما لا شك فيه أن هذه النتائج أيضاً سوف تجد يوماً ما مجالاً للتطبيق وسوف يكون لها تأثيرات كبيرة على التفكير وعلى المجتمع ، ولكن لا يعني هذا بالضرورة أن تكون لجميع التفاصيل تبعات وتأثيرات وأن تتحقق هذه التأثيرات وفقاً للأهداف الأصلية الأولى .

الرياضيات ـ الجزء غير المرئي من الحضارة

ولنكتف بهذا القدر من المصطلحات والمفاهيم المتخصصة ، ولنتمعن ما قاله هرمان ڤيل H. Weyl عن الرياضيات بصفة عامة : لكي يصل الانسان الى المعرفة والفهم ولكي يتنبأ بما قد يكون عن طريق النماذج النظرية يلجأ عادة الى استخدام الرياضيات ، أي الى استخدام لغة الرياضيات ومناهجها الفكرية ونتائجها . ومن المدهش أن هذا البنيان الفكري الذي يتسم بالتجريد لم يقم أساساً من أجل ذلك الغرض ، ومن الواضح أن التطبيقات وآثارها العملية وان كانت

شاهداً على عظمة الرياضيات إلا أنها ليست الدافع لها ، فدوافع الرياضيات من نوع آخر .

واذا حاول المرء وصف هذا الدافع فسوف يجد نفسه مضطراً لاستخدام كلمات مثل «حب الاستطلاع» ، الرغبة في المعرفة ، فرحة الاكتشاف ، أو حب اللعب ، هل معنى هذا فعلاً أنها لعبة صعبة تتطلب قدراً كبيراً من الاهتمام مثل أية لعبة جيدة ؟ نعم هذا صحيح الى حد ما ، لكن من المعروف أن لهذه اللعبة أهمية كبيرة وآثاراً عميقة ، وهنا تتحول اللعبة الى الجدية ، ويقترب الدافع في الرياضيات من الدافع في الفن ، وكما هو الحال في الفنون فليس من السهل تحديد ما هو قيّم وأصيل بدقة ، ويدخل في التقييم عمق التعبير وتلاؤمه وجماله ، وكذلك فتح آفاق جديدة تعمّق التفاعل مع المشاكل . وهذا بالذات مهمة تتطلب بالضرورة الخبير المتخصص . ولكن «فن» الرياضيين يفتقد الى شيء هام وإن كان غير حاسم ، هذا الشيء هو قاعدة الجمهور العريضة . فيما عدا ذلك فالتشابه بين الفن والرياضيات كبير ، كالتواصل والعطاء المستمر من الأساتذة الى الناشئين ، ومن مدرسة الى مدرسة ومن جيل الى جيل عبر المكان والزمان ، وما يرتبط بذلك من رقابة شديدة تشمل المرتبة ، والكفاءة ، والبحث عن أهداف وتطورات جديدة وتخطى ما قد بدا في وقت ما أقصى الحدود . لقد أصبحت الرياضيات جزءاً من الحضارة .

الرياضيات التطبيقية

ربما يتحفظ من يطلق عليهم «التطبيقيون» على هذه التسمية ، فهم من يحققون الربط بالنواحي التطبيقية الهامة التي سبقت الاشارة اليها ، ويغلب الطابع العملي المباشر على عملهم ، أما البحث الحر عن العلاقات الرياضية فيعتبرونه بعيداً عن الواقع ، فهم يهتمون بمواضيع يحتاجها الانسان في حالات محددة ، ومن الطبيعي أن تتبلور عندهم مشاكل مغايرة لتلك التي تهتم بها الرياضة البحتة . وبصرف النظر عن كون الوصول الى الحل عن طريق استخدام مفاهيم ووسائل جديدة أو عن طريق الرصيد الضخم المتوفر في الرياضة البحتة فمنهج التفكير واحد ، كذلك تتماثل مقاييس الدقة والقيمة ، وعلى هذا فأنا أعتبر ان الفرق بين الرياضة «البحتة» و «التطبيقية» متدرج أو نسبي ، وأن الحدود الفاصلة بينهما غير ثابتة ، ألم يظهر ذلك جلياً من خلال الأمثلة التي سبقت الاشارة اليها ، فمن الممكن أن يهبط موضوع متكامل من البرج العاجي للرياضيات البحتة التجريدية الى عالم الواقع ، والعكس بالعكس ، وبنفس الدرجة يمكن أن يصيب هذا التحول عالم الرياضة نفسه ....

فقد يتدرج به الاهتمام من ميدان التنظير الى ميدان التطبيق أو يرتفع من التطبيق الى التنظير . الأهم من التفرقة بين «الرياضة التطبيقية» و «الرياضة البحتة» هو **نوعية** الموضوع المطروح ، فليست جميع الموضوعات التي يشتغل بها العلم والبحث على حد سواء ، وهذا أمر بديهي .

الرياضيات البحتة في مواجهة الرياضيات التطبيقية

على الرغم من ذلك فلا يمكن إنكار وجود أشكال من الصراع بين الرياضيات البحتة والتطبيقية . كان من الممكن بعد ما سبق التغاضي عن ذلك ، لو لم يكن لتلك الصراعات جوانبها التي تمس سياسة البحث العلمي ، ويتضح ذلك من المقابلة الشائعة بين البحث من أجل المعرفة والبحث من أجل التطبيق العملي . ولا ينبغي أن يقلل المرء من شأن الأخطار التي تحيط بهذه القضية . وهو ما يحملنا على التوقف هنا لحظة .

قد يردد البعض تلك المقولة المعروفة «دع العلماء يختلفون ويتشاجرون» ، ولكن جوته يقول أيضاً : «إن علماء الرياضيات يشبهون بشكل ما الفرنسيين . اذا تحدثت اليهم ترجموا أقوالك الى لغتهم ، وحينئذ تصبح شيئاً مختلفاً تماماً» ، وهذا ينطبق بوجه أو آخر على كل ترجمة . على أن هذا الاتهام يوجه بكثرة الى الرياضة البحتة . من الصحيح أن ما تصيغه الرياضيات البحتة من مسائل يختلف كثيراً عن الواقع الذي استخرجت أو جردت عنه ، وليس ذلك مضراً ، بل على العكس . . . فهذا هو سر قوتها ، والحال كذلك أيضاً في مجال الرياضة التطبيقية ، فعندما تكتسب احدى مشاكل الهندسة أو الطبيعة أو الاقتصار ثوباً رياضياً فانها بذلك تكون قد ترجمت من مشكلة واقعية الى لغة الرياضيات المجردة . أهناك اختلاف كبير بين «معادلة انتقال الحرارة» و«طوبولوجيا الشبكات» و «نظرية الأحداث المفاجئة» و«نظرية اللعب» من ناحية وبين «تمثيل المجموعات» و «جبر

المعاملات» من ناحية أخرى ؟ . . . هل الأولى أكثر «واقعية» من الثانية ؟

كان هناك لوحة تعبر عن هذا الموضوع في جامعة جوتنجن التي كانت آنذاك قلعة من قلاع الرياضيات ، واللوحة عبارة عن صورة لتحفة الفنان تيتسيان Titzian المعروفة «الحب السماوي والحب الأرضي» ، وتصور امرأتين احداهما في أفخر الثياب والأخرى عارية ، ولم يكن يعني ذلك أن المرأة العارية تمثل الرياضيات البحتة والأخرى تمثل الرياضيات التطبيقية ، بل المقصود هو أن الفارق بينهما لا يتعدى المظهر الخارجي . ومن هذا نرى أن الحديث حول هذا الموضوع ليس جديداً ، وبهذه المناسبة نذكر أن ريتشارد كورانت Courant الذي هاجر في الثلاثينات من جوتنجن الى الولايات المتحدة الأمريكية ووضع هناك حجر الأساس للرياضيات التطبيقية ووصل بها الى الازدهار ، لم ينس لحظة ما الوحدة الوثيقة بينها وبين الرياضيات البحتة .

درجة الأهمية

يجنح العالم اليوم الى التركيز على المنحى التطبيقي للرياضيات ويبدو ذلك واضحاً من الاعتمادات المالية ، وعدد الوظائف ، وبرامج تشجيع البحث العلمي ، ويرجع ذلك بالطبع الى اهتمام الرأي العام المتزايد بالرياضيات والى الرغبة في صنع ما هو مفيد وهام لعالمنا الحاضر . لكن أهمية موضوع ما لا يمكن التكهن بها على الدوام وقد تكون قصيرة الأجل ، وهل معنى الأهمية دائماً أن الأمر مفيد وجوهري ؟ حقيقة أن عالم العلم والتكنولوجيا اليوم ـ وبصرف النظر عن الموقف الشخصي تجاه هذا العالم ـ يحتاج الى التنوع الواسع في مجال العمل والدراسة والبحث العلمي ، ابتداء من المحاولات التي تستهدف الناحية العملية الى النظريات المجردة وأي تدخل تعسفي أو توجيه مصطنع لصالح مجالات بعينها على حساب ما يسمى بالمجالات المجردة غير النافعة سوف يؤدي بالضرورة الى اخلال التوازن القائم ، والى إضعاف الناحية الابداعية في الرياضيات . وليس من الصالح والمحبذ أن تقوم سياسة البحث العلمي في دولة ما على حساب الأهمية المحددة ، وبوجه خاص في مجال الرياضيات . وبهذا المعنى صدرت حديثاً مجموعة قرارات من اللجنة القومية الأمريكية الخاصة «بأهداف تعليم الرياضيات في الثمانينات» ، ويكتب أحد المعلقين في المقالة الافتتاحية لمجلة «الفكر الرياضي» فيقول :

«يرجح الاتجاه السائد اليوم في مجال تعليم الرياضيات كفة التطبيقات وعلوم الحاسب الالكتروني والاحصاء ، ولذلك أسباب عديدة ويمثل هذا الاتجاه ظاهرة صحية في حالات كثيرة . . .، وبالرغم من ذلك فانه لا يخلو من المخاطر . فالقول بأن مواد الدراسة في المدارس والجامعات يجب أن تتضمن مزيداً من موضوعات الرياضة العملية وقدراً أقل من الموضوعات المجردة سوف يغري الكثيرين خاصة غير الرياضيين ، ومن المفروض أن نحرص على عدم الخلط بين ذلك وبين الفكرة القائلة بأن الرياضيات ذاتها يجب أن تكون أكثر تطبيقاً وأقل تجريداً . . . فامكانية التطبيق لا تعني اطاقاً ـ امتياز العمل الرياضي ، فهناك موضوعات كثيرة مما جرى العرف على اعتبارها «تطبيقية» تحظى بدراسة واهتمام علماء الرياضيات ، ليس لأهميتها التطبيقية ولكن لمضمونها الرياضي القوي .

ومن المؤكد عدم وجود اتفاق عام بهذا الخصوص ، حتى بين المتخصصين ، فكيف يمكن لغير المتخصص أن يحكم على شيء غير ملموس ؟ ولنأخذ الأشياء كما هي ، فقد استطاعت الرياضيات الأصيلة أن تصمد على مر قرون طويلة من الزمن . ومن دواعي السرور أن هناك مدارس كثيرة في جميع أنحاء العالم تزدهر فيها الرياضيات بصورة متوارثة ، وجامعتنا الهندسية الفيدرالية من ضمن تلك المدارس ، من واجبنا أن نسعى دائماً في التدريس وفي البحث العلمي الى المحافظة على الرياضيات كما يحتاجها الانسان ، وألا يكون هدفنا هو الأهمية الوهمية ، وأن نعلّم المضامين الحقيقية ولكن في نفس الوقت أن نقدم هذه المضامين والمعارف في اطارها المحدد أو المحدود ، دون أن نسمح لأنفسنا باخراجها عن هذا الاطـار .

فولفقـانج هـاوسمـان

نظرة على قضايا الطب الحديث ومشاكله

لا جدل في أن الطب قد أحرز في هذا القرن انتصارات ضخمة ، ولا نعرف حقبة سابقة من حقب الطب قد حققت ما حققته الحقبة الحالية من انجازات واكتشافات . فمن قبل خمسين عاماً كانت نسبة الوفيات في المانيا بفعل الأمراض المعدية هي فرد من بين خمسة أفراد . أما اليوم فقد أصبحت نسبة الوفيات بهذه الأمراض : التيفوئيد ، وحمى الباراتيفوئيد ، والدوسنطاريا (زحار) ، والحمى القرمزية ، والدفتريا ، والسعال الديكي ، والكزاز ، وحمى الأطفال ، والالتهاب الرئوي ، قد أصبحت ضئيلة للغاية ، ولا تتعدى هذه النسبة ٤ في المائة . فبفضل مركبات السلفانميد التي توصل اليها جرهارد دوماجك Domagk والبنسلين الذي اكتشفه الكسندر فليمنج Fleming ثم بفضل المضادات الحيوية المتطورة قد أمكن الى مدى بعيد القضاء على خطورة هذه الأمراض .

كانت نسبة الوفيات في المانيا عام ١٩٣٨ بفعل مرض الدرن الرئوي ١٢٥ شخصاً من بين مائة ألف شخص ، أما الآن فيتوقع الخبراء أن يصبح مرض السل في نهاية هذا القرن شيئاً نادراً للغاية ، وان حذر البعض من التهوين من شأن هذا المرض أو اغفال مكافحته . من يصاب اليوم بالانيميا الحادة (فقر الدم) أو بتسمم الدم أو الالتهاب السحائي يمكن معالجته بنجاح ، مثل هذه الحالات كانت من قبل دون علاج ودون أمل في الشفاء . ومن فترة ليست بعيدة كان حياة المصاب بمرض السكّر (مرض البول السكري) في العادة محدودة أو قصيرة . أما اليوم فلا تختلف أعمار مرضى السكر عن أعمار غيرهم ، وجدير بالاشارة أن متوسط العمر المتوقع في أوربا بالنسبة لمواليد الفترة بين عام ١٩٥٠ و١٩٧٠ قد ارتفع بنسبة ٥٪ وبلغ بذلك ٧١ عاماً .

وخلاصة القول أن التقدم في العلاج بالأدوية وعن طريق الجراحة ومن خلال تكنولوجيا الطب لا يداخله الشك . بل ان توقف القلب عن النبض لا يعني بالضرورة الموت ، فهناك بدائل (أو قطع غيار) لأعضاء الجسم والأنسجة من اللدائن (البلاستيك) . وبفضل التكنولوجيا الفنية المتطورة قد أمكن التقليل من مخاطر العمليات الجراحية . وأخيراً وليس آخراً ، فقد طور الطب الوقائي وسائله العلمية ، وميادينه وأبحاثه وساهم هكذا في رفع المستوى الصحي العام .

وعلى الرغم من ذلك ، فمن باب الوهم أن نتوقع أن يوجد عالم خال من الأمراض والاسقام ، من الوهم أن نتصور نجاح الطب في القضاء تماماً على الآلام والعاهات والنقائص البدنية . فالانسان ذاته يخلق على الدوام يوماً بعد يوم الأعطاب التي تصيب الروح والجسد . فعلى الرغم من كل الاجراءات والجهود من أجل حماية عالم الحياة فان المؤثرات الضارة تزداد باستمرار بفعل المدنية الحديثة والتكنولوجيا . بل ان المقومات الأساسية للحفاظ على الصحة العامة – مثل الهواء النقي والماء النقي والتربة النقية – في تناقص مستمر . وما زال مفهوم حماية البيئة من التلوث كلمة غريبة دون معنى واضح بالنسبة للكثير من السياسيين .

ومن المرجح أن ما من فرع من فروع الطب إلا ويعرف الأضرار المترتبة على ظروف المعيشة والبيئة المحيطة . نعم ان حضارتنا تتجه الى تخفيف الأعباء الجسمانية عن الانسان ، ولكن حتى أيضاً هذا المنحى يحمل في طياته الكثير من الأخطار . فالعمل الذي يتطلب مثلاً المراقبة فحسب ، والذي يتم آلياً بدرجة أو أخرى ، يتطلب بطبيعته الكثير من التركيز والانتباه ، وتبعة ذلك هو الارهاق النفسي ، فمصدر الارهاق هو الاجهاد العقلي وقلة الحركة والنشاط البدني . وينظر الكثير من الأطباء الى هذين العاملين كمصدرين للمرض . أي أن نفس المدنية التي تخفف عنا أعباء العمل

وتعلى من متوسط أعمارنا ، تحكم علينا بالمرض . فالكثير من الكلمات المتداولة الآن مثل «العادن» (الغاز المستهلك) والمواد الضارة تعني المرض والعجز عن العمل وانسداد أوعية القلب ، وتحلل الجسم والموت المبكر .

ويذهب البعض الى أن نحو ١٥ في المائة من السكان يعانون من الاضطرابات النفسية والعصابية ،وأن ثلث الأمراض الجسمانية يعود الى أسباب نفسية . كانت نسبة الوفيات بمرض السرطان عام ١٨٧٥ هي ٢ في المائة ، وقد صارت عام ١٩٧١ ٢١ في المائة ، ومن المتوقع ان تتراوح هذه النسبة عام ١٩٨٠ بين ٢٥ و٣٠ في المائة ، كذلك ارتفعت نسبة الوفيات بسبب انسداد أوعية القلب أكثر من خمسة أضعاف في الفترة من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٧٦ . وتبدو هذه النسبة في اطراد مستمر . ويقدّر عدد المدمنين على تعاطي الخمر في المانيا بنحو مليون ونصف ، من بينهم الكثير من النساء والأطفال . وكان عدد المدمنين على الهروين في المانيا عام ١٩٧٧ هو ٢٥ ألف مواطن . ويمكن القول أن جميع الألمان يعانون من تسوس الأسنان . وليس من شك من أن جميع هذه الأمراض والأضرار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأسلوب المعيشة الذي نسير عليه . وتذهب منظمة الصحة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة الى أن أكثر من ٨٠ في المائة من حالات مرض السرطان هي تبعة من تبعات التقدم التكنولوجي والكيميائي الخاطىء . ومن ثم لم تعد قضية الصحة والمرض من شأن الطبيب أو من اختصاصه وحده . لقد أصبح هذا التصور بلا مضمون . يقاسم الطبيب الآن في المسؤولية الكثيرون : المؤسسات الحكومية ، ورجال الاقتصاد ، والمهندسون المعماريون ، ورجال الحكم وغيرهم .

ولكن في المقدمة تأتي مسؤولية الفرد وسلوكه ، فهي المعول الأول في قضايا الصحة والمرض في المجتمع . وقد لخص عالم الفسيولوجيا الطبيب هنز شيفر في ندوة نظمتها الأكاديمية الانجيلية في هيدلبرج هذه القضية كالآتي : «تتضح يوماً بعد يوم العوامل التي تعرض الصحة للخطر ، وهي في المقام الأول عوامل تخضع للسلوك الفردي ، مثل : التدخين ، والافراط في المأكل وخاصة في تعاطي المواد السكرية ، والكحول ، والمغيبات والمخدرات والادمان ، ثم الطموح المرضي المفرط ، والجشع أو السعي الى الكسب بكل الوسائل . وبطبيعة الحال فلجميع هذه السلوكيات الخاطئة أسبابها التي يجب أن توضع موضع الدرس . ولا جدل في أن هذه الأسباب ذات طبيعة اجتماعية ، فهي على أية حال ليست قضايا وراثية . على أن المجتمع يفرض هنا هذه السلوكيات بطرق متشابكة معقدة ، عن طريق القدوة والتقليد والتأثير من خلال وسائل الاعلام ، وبسبب انعدام الحوافز الايجابية لاتباع السلوك الصحي ، وهذه قضايا تتعلق بالذهنية السائدة في المجتمع أكثر مما تتعلق بالتكوين السياسي للمجتمع ، ويمكن بالوسائل الديمقراطية احداث التغيير الايجابي في السلوكيات» .

ومن ثم كانت التربية الصحية والتوعية قضية القضايا التي تتوقف عليها صحة المجتمع . وتستهدف التربية الصحية تنشئة ما يمكن تسميته «بالمريض الراشد» ، الذي يسترشد بالتعليمات الصحية ويتعاون مع الطبيب والمجتمع من أجل صالحه وصالح المجموع .

ولكن من هو هذا المريض الراشد ؟ هل هو المريض المستسلم لتعليمات الطبيب ، الذي يتناول الدواء ، ويذهب الى الطبيب بانتظام ، ويسعى بذاته الى استكمال معارفه الصحية والطبية ؛ أم المريض الذي يعرف حقوقه كما يعرف طبيعة ما يعاني منه من نقائص أو اسقام ؟ الواقع ان مفهوم «المريض الراشد» هو تصور خيالي أو افتراضي .

ومن جانب آخر نجد علاقة المريض بالطبيب أو نظرته الى الطبيب . كثيراً ما يسخر المرضى من الأطباء ويتهمونهم بالجهل وقلة الفهم والتعاظم أو التعالي . وبوجه عام يذهب الخبراء الى أن الأطباء بعد الفحص المباشر لمرضاهم يستطيعون على الأرجح في نصف الحالات تشخيص ما يعاني منه هؤلاء من أمراض ، وفي النصف الآخر يفترضون بعض الحالات أو الأمراض العامة . هكذا يذهب الطبيب ك . ب . توماس ، ويحاول أن يفحص ما يترتب على ذلك من نجاح أو خطأ في العلاج .

ونستطيع أن نلخص النتائج التي توصل اليها في عبارات قليلة : فهو يقسم تلك المجموعة من المرضى التي لم تحصل على تشخيص محدد بعد الفحص الأولي الى فئتين : في حالة الفئة الأولى فهو يصارحها بأنه لا يجد ما يشير الى المرض ولا يرى أن الأمر يتطلب علاجاً ما ، أما الفئة الثانية فيكتب لها وصفات

ببعض الأدوية . ويطلب من أفراد الفئتين معاودة زيارته بعد ثمانية أيام ، إن لم يطرأ تحسن واضح على ما يعانون منه . ويقول توماس انه لم يجد فيما بعد فرقاً ما بين أفراد الفئتين من حيث نجاح العلاج ، وينتهي الى القول ان المريض الذي يتعاطى الدواء يستطيع أيضاً الشفاء دون علاج ما .

المثير في هذه التجربة أن زوار الطبيب لا يذهبون اليه بدافع الحصول على الأقراص والأدوية ، أي بسبب تهافتهم على الأقراص الطبية ، كما يعتقد البعض ، بل الأمر غير ذلك . فيقول صاحب التجربة : إن ما من مريض قد اعترض على نصيحته إياه بأن الأمر لا يحتاج الى دواء . فالمرضى يتقبلون أيضاً الاستشارة دون الحصول على وصفة طبية ، وهذه علامة من علامات النضج والرشد . ولكن من هو المريض الراشد ؟ من العسير حتى على خبراء الطب الاجتماعي وصف هذا المريض وخصائصه بوضوح .

وبالتأكيد فالكثير من المرضى ينتظرون من الطبيب وصفات (روشتات) بالأقراص الطبية ، ان ذلك الهوس الضخم بتعاطي الأدوية الذي استشرى في دول الغرب الصناعية هو الوجه السلبي لذلك الحق العام الذي شاع والذي ترفعه أيضاً منظمة الصحة العالمية ، ونقصد به «حق كل انسان في الصحة».

يعرّف البعض المريض الراشد بأنه ذلك الذي يملك قدراً من المعارف الطبية التي تجعل منه طرفاً وشريكاً للطبيب المعالج والتي تيسر الحديث والتفاهم بينهما . وميزة ذلك لا تحتاج الى بيان ، فالطبيب الذي يتحدث الى مريض عارف سيعطيه بالضرورة المعلومات الدقيقة التي تتصل بحالته ، وسيتعامل معه دون جهد .

وبالمثل فالمريض يستفيد من هذه العلاقة . على أن المواطن العادي يتلقى في الغالب هذه المعلومات من خلال وسائل الاعلام اليومية التي تهتم عادة بكل ما هو مثير أو غريب في ميدان الطب ، في حين أن التوعية الطبية أكثر ضرورة وأهمية في أبواب الطب المألوفة أو اليومية . فمعرفة الانجازات الجديدة في ميدان الطب بلا قيمة كبيرة بالنسبة للمريض العادي .

وانما الأجدى أن يعرف المريض ما ينقصه ، وأن يعي على سبيل المثال ضرورة تعاطيه الأدوية التي قد تكون لها آثار جانبية ، الأجدى أن يدرك مثل هذه القضايا حتى يستطيع التعاون مع الطبيب ..

ولكن نقص القدرة على التعاون لا تعود الى المرضى وحدهم ، فالأطباء أنفسهم قد تنقصهم القدرة على التعامل مع مرضاهم بطريقة مقنعة أو ملائمة ، فلا يكفي أن يصدر الطبيب تعليماته الحاسمة الى المريض بالكف عن التدخين أو الكف عن تعاطي الخمور حتى يقلع المريض عن التدخين أو تعاطي الخمور . مثل هذه التعليمات قد لا تؤدي الى شيء على الاطلاق .

يشير الطبيب فرنر هارتمان (الأستاذ بكلية الطب بهانوفر) الى ان الثقة وحدها لا تؤدي بالضرورة الى تكوين علاقة طبية مثمرة بين الطبيب والمريض ، وإن كانت تيسر عمل الطبيب . فهي ليست ضماناً لتعاون المريض من أجل تشخيص مرضه واتباع العلاج . فالطبيب كسلطة عليا والطبيب كخبير لا يكفلان بالضرورة تعاون المريض . أما العلاقة النموذجية بين الطبيب والمريض ، فهي تلك التي تتسم بالتوازي ، حيث يتسم الطبيب بالصبر والقدرة على الاعتراف بالمريض كطرف هام في عملية الشفاء . فما يتصف به المريض ذاته من رشد يتوقف على تقبل الطبيب لهذا المريض . أما الجانب الآخر فهو المريض الذي يدرك مسؤوليته عن نفسه وعن أسلوب حياته والذي يعي أنه ليس بآلة قابلة للاصلاح ، وهو ما يتطلب الكثير من التوعية والتنوير .

كان عدد مرض البول السكري في المانيا عام ١٩٤٥ هو ٢٠٠ الف مريض ، وقد ارتفع هذا العدد أخيراً في جمهورية المانيا الاتحادية الى نحو مليونين ، ويبلغ عدد الذين يعانون من ارتفاع ضغط الدم نحو ستة ملايين ، ومن مرض الربو نحو ٣٠٠ الف ويعاني من الروماتزم فرد من بين عشرة أفراد .

معنى رفع المستوى الصحي في البلاد الصناعية هو مقاومة مرض السرطان ومرض تصلب شرايين القلب . وحتى الآن لم يحرز الطب في هذين المجالين نجاحاً كبيراً . فكل ٣٠ ثانية يموت في أوربا فرد بسبب تصلب شرايين القلب . أما المسبب الثالث

مقطع رأسي في الأذن اليمنى في أعلى منطقة السمع . باريس ١٩٧١ .

الخطير للموت ، وهو حوادث الطرق ، فلا نعرف حتى الآن وسيلة فعالة لمكافحته .

تحمل تقارير منظمات الصحة العالمية عن الحالة الصحية في أوربا الكثير من الأنباء والمعلومات الفادحة ، وإن احتوت أيضاً على العديد من الايجابيات والانجازات . فقد تراجعت نسبة الوفيات بين الأطفال والشباب بشكل واضح خلال العشرين عاماً الماضية (انخفضت نسبة الوفيات بين المواليد من ٣٠ الى ٢٠ مولوداً من بين الف مولود) . واختفت تماماً من أوربا بعض الأمراض المعدية الخطيرة ، وبالمثل تتراجع نسبة الوفيات المترتبة على الاصابة بالعدوى أو الطفيليات . هذا في الوقت الذي ترتفع فيه نسبة الوفيات المترتبة على الحوادث ، وعلى استخدام القوة ، والانتحار . وتعود نصف حالات الوفيات بوجه عام الى الأمراض المتعلقة بالقلب وأمراض الدورة الدموية والأوعية .

ان الهدف الطموح لمنظمة الصحة العالمية هو أن توفر لجميع شعوب الأرض قاطبة درجة من الصحة والأمن الصحي . وهي تسعى الى هذا الهدف منذ نحو ثلاثين عاماً ، وبالرغم من ذلك فيبدو أنه هدف صعب بعيد عن المنال في وقت قريب . فوفقاً لتقارير المنظمة فان عدد سكان العالم الذين يعانون من الاصابة بالديدان يبلغ نحو ٨٥٠ مليوناً وأن الموت جوعاً والموت بسبب نقص التغذية يهددان مئات الملايين من البشر .

نعم قد تراجعت بوضوح نسبة الاصابات بمرض شلل الأطفال ، ولكن من جديد ترتفع الاصابات بهذا المرض في بعض المناطق الاستوائية الحارة التي لا تتوفر فيها الخدمات الطبية . كذلك مرض الكوليرا ، فقد أمكن الحد منه ، ولكنه لم ينمح بعد . أما الأمراض التناسلية فهي من جانب تتراجع باطراد في مناطق ، ومن جانب آخر تنتشر من جديد في مناطق غيرها ، هذا بالاضافة الى مرض الجذام ويبلغون احد عشر مليوناً . هذه هي الصورة الصحية العامة لسكان العالم ، وهي صورة تكثر فيها الظلال والجوانب القاتمة .

أنبالغ أم نقدم هنا رؤيا غريبة لا تتفق مع واقع الطب في العالم التكنوكوجي ؟ ان الحركة التي يتصف بها العالم الآن ثم الوجهات العالمية في ميادين البحث تدعونا الى تأمل مشاكل الصحة القومية وقضايا الطب في إطار عالمي شامل يدخل في اعتباره التطور العام في العالم . ومن أجل ذلك تشارك المانيا الاتحادية مشاركة عملية في هيئة الصحة العالمية ، وتساهم في ميزانية هذه الهيئة بأكثر من مائة مليون دولار ، في حين أن حصة كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي في ميزانية الهيئة هي ٥٠ مليون دولار . يعمل حالياً بمركز الهيئة بجنيف نحو ٢٠٠٠ شخص ، بالاضافة الى ٣٦٠٠ شخص في المواقع الخارجية للهيئة ، وتبلغ مشاريع البحث التي تقوم بها الهيئة أكثر من الف بحث ، تمس مصالح ١٣٦ دولة .

في الوقت الذي تسعى فيه الدول النامية الى بناء أنظمة صحية فعالة ، وفي الوقت الذي يستعان فيه في آسيا بالطرق الطبية التقليدية ، نجد الطب في المانيا وأوربا عرضة للنقد الشديد ، من حيث أنظمته وفاعليته . وليس أدل على ذلك من النجاح الضخم الذي صادفه كتاب ايفان اليش Alisch المعنون «مصادرة الصحة» Die Enteignung der Gesundheit ، بل ولا نعرف مؤلفاً آخر قد أحدث مثل هذا الصدى بين دوائر الأطباء حتى ذهبت بعض الصحف الى تسمية صاحبه بـ«مارتن لوتر الطب» ، في حين تكيل له الدوريات الطبية الاتهامات ، فتصفه تارة بأنه انسان طوباوي راديكالي ، وتارة أخرى بأنه شيوعي متطرف .

يمكن اختصار نظريات اليش المختلفة التي أثارت النقاش الحاد في عبارة قصيرة ، وهي أن الطب قد أصبح ذاته خطراً رئيسياً يهدد الصحة . أو كما يقول : ليس هناك وباء ينتشر بمثل هذه السرعة المذهلة في أنحاء الكرة الأرضية غير الطب . فالأطباء ووسائل التطبيب والمستشفيات ، هذه جميعاً أو مجتمعة تحدث من الأضرار الصحية والأمراض ما يفوق تلك الأضرار والأمراض التي تكافحها . فاليش يشك كلية في فاعلية الطب الحديث ، وفي جدوى الطب الوقائي وأجهزته .

لقد تحول رجال الطب كما يذهب اليش الى مجموعة من الاداريين البيروقراطيين في منظمة حرفية تحول جميعاً السكان الى مرضى ، وكل ما أحرزه الطب الوقائي من نجاح هو بث

الرعب والخوف في النفوس ، لقد أصبح الطب ـ كما يقول ـ مؤسسة احتكارية تضيق حرية المواطنين باطراد وتدفعهم في ركـابهـا .

ليس اليش من هؤلاء المصلحين الذين يدعون الى تعميم الطب . بحيث يشمل بمظلته أكبر عدد من الناس ، على العكس من ذلك ، فانه يرى الطب الآن كفرع من فروع التكنولوجيا ، ويتحدث في هذا الصدد عن تكنولوجيا الطب ، وهي في نظره مجموعة من الآلات والأجهزة الطبية الباهظة الثمن فحسب ، ويقترح الاستغناء عن هذه «الطقوس الدينية» وعن سحر الأجهزة الحديثة وعدم تضييع الأموال والجهود في «عبادة أصنام جديدة» لا تعود على الناس بعائد حقيقي ، ويرى أن القسم الأعظم من الأدوية والوسائل الطبية لا يحتاج الى كل هذه الأجهزة ويمكن تيسيره بتكاليف بسيطة .

وفي النهاية ، فهو يقترح تحرير مهنة الطب من طابعها الحرفي التقليدي ، وبالتالي يعارض بشدة تلك التبعية المتزايدة للأجهزة والمؤسسات المختلفة التي ينساق اليها الناس باطراد في المدنية الغربية .

لا يجانب اليش الصواب في الكثير من مآخذه على الطب الحديث وعلى الأطباء ، ولا ينكر خصومه ونقاده جدوى الكثير من النظريات والتصورات التي يقترحها . فالبديهيات الأولى لعمل الطبيب في تراجع ظاهر ، فمن الأطباء من يجهل الآن في غمرة التعامل مع الأجهزة والبيانات أن الخطـوة الأولى في سبيل العلاج هي أن يضع الطبيب يده في يـد المريض . تشغل الطبيب الآن العدد والأجهزة والأدوات عن رؤية المريض والحديث معه ، وهذا أحد مظاهر ما يسمى الآن «بأزمة الطب» .

لم يعد الطب في وعي الكثير من الأطباء غير علم تطبيقي من العلوم الطبيعية . ولا يغير من ذلك اطراد النظر الى «الطب» في ضوء علوم النفس والاجتماع . لم يعد الطب هو علم الشفاء فحسب منذ أن أضيفت اليه موضوعات الوقاية الصحية ثم إعادة تأهيل المرضى . نعم لقد أدى تطور الخدمات التكنولوجية الى تنمية إمكانات جديدة للتشخيص والعلاج ، فمشرط الجراح الشهير لا يعمل اليوم وحده ، وإنما تسانده إنجازات تكنولوجية جديدة . وبفضل ذلك أصبحت مثلاً زراعة الكلية عملية يومية في المستشفيات ، وبالمثل زراعة أجهزة تنظيم عمل القلب .

ويتوقع الأطباء في وقت قريب للغاية الاستعانة بقلوب صناعية ، استكمالاً للأجزاء الصناعية التي يستخدمونها الآن في عمليات القلب من أجل تنظيم النبض .

وهناك الكثير من التجارب الجراحية التي تذهب أبعد من ذلك والتي تطرح العديد من الأسئلة ، بحيث يحق أيضاً التساؤل عما إذا كان من المسموح به أن يعمل الطبيب كل ما يمكن عمله . ولكن ما فائدة تلك التجارب المثيرة طالما اختلف الأطباء حول ميادين عملهم اليومي ، وحول نوعية هذا العمل وجدواه . قد أثارت عملية زراعة القلب الأولى التي أجراها كرستيان برنارد التفات العالم ، فهل يكفي هذا وحده للحكم على جدوى أو عدم جدوى زراعة القلب ؟

ليس لنا أن ننكر أن تطور الطب في المستقبل لن يكون بدون الاستعانة بالعلم الحديث والتكنولوجيا ، ولكن الأهم أن نسأل : أيمكن أن نحتفظ في ظل ذلك التطور بنبض الحياة الانسانية وبالمضمون الانساني الأصلي للطب . ينمو دور الطبيب فحسب ، طالما استرشد في عمله بالحاجات الاجتماعية ، وما زال ربع الأطباء في المانيا الاتحادية يعملون في حقل الطب العام ، أي أنهم يواجهون المرضى كأطباء غير أخصائيين وإنما كأطباء معالجين بالمعنى التقليدي. ولكن لا بد من اعدادهم الاعداد اللائق ومن تزويدهم على الدوام بالثقافة الطبية الجديدة حتى لا ينتهي بهم الأمر الى ممارسة الطب كما يمارسه رجل الطب البدائي في الدغل .

لن تقل الحاجة الى الوسائل التكنولوجية في ميادين البحث . ومنذ فترة غير بعيدة كانت أبعاد هذا التطور تبدو من بـاب الخيال الذي يجنح اليه كتّاب القصص العلمية الخيالية ، حين يتخيلون ـ كما فعل هينز هابر في أحد أفلامه التليفزيونية ـ هروب كائنات معملية دقيقة من المعامل الى عالم الأحياء حيث يعيثون فيه الدمار والخراب . ولكننا قد سمعنا منذ فترة عن عمليات الاخصاب الصناعية وعن الامكانات المثيرة لما يسمى

بهندسة الأجنات genetic engineering ، مما يتطلب الرقابة الشديدة . وبالمثل فامكانات واحتمالات الطب المتطورة تتطلب درجة عالية من المسئولية والاخلاق (فلنذكر عمليات زراعة الرأس التي يجريها الآن الدكتور الأمريكي روبرت وايت على القردة ، بالاضافة الى قضايا العلاج المكثف والى التجارب التي تجري أيضاً مع الآدميين) لقد أصبح الطب ـ كما يقول هينريش شيبرجس ـ «قوة تلقي بأضوائها وظلالها على جميع مجالات الحياة» .

من جانب آخر ، فقد أدى شك الكثيرين في جدوى تعاطي الأقراص وفي ذلك التهافت المرضي الشديد على الأدوية والأقراص الى ازدهار طرق العلاج الطبيعي . (ارتفع عدد الحكماء الطبيعيين ـ أي الذين لا يحملون شهادة طبية ـ في المانيا أخيراً نحو أربعة آلاف) ، وتختلف الآراء في جدوى هؤلاء الحكماء الطبيعيين ، ولكن الذي لا يمكن انكاره أن العلاج بطرق طبيعية على أساس علمي من الأهمية بمكان ، ومن المتوقع أن يستمر هذا المنحى في المستقبل كميدان اضافي .

هذا في الوقت الذي تدثر فيه المعارف الطبية المتوارثة في بلدان العالم الثالث تحت ضغط الغزو المستمر للطب الحديث . قد ينظر الطبيب في الغرب بلا فهم الى وسائل العلاج المتوارثة في الحضارات الغريبة عليه ، ولكن هذا وحده لا يكفي للحكم على هذه الوسائل .

اننا نشاهد اليوم نشوء علم جديد ، هو الطب الاثنولوجي ، وذلك بفضل الدراسات والأبحاث التي يقوم بها علم عادات الشعوب .

أمضى عالم الفسيولوجيا فولف شريفن هوفل سنوات عدة بين قبائل غينيا الجديدة من أجل دراسة سلوكيات هذه القبائل إزاء المرض والموت ، وانتهى الى أن الكثير من وسائل التطبيب والممارسة في هذه القبائل ذات طبيعة سحرية وانها ترتكز على الايمان بالجنّ والقوى الخارقة للطبيعـة . ويعلق شيفن هوفل على ذلك فيقول : «قد تبدو العناصر السحرية في عيني الأوربي من ملامح الطب التقليدي ، ولكنه لا يدرك أن هذه الوسائل البدائية في الظاهر ترتكز على معارف طبيعية شاملة وعلى خبرات طبيعية غنية ، تدخل في عمليات التطبيب بجانب الطقوس السحرية» .

فالمعارف الخاصة بالنباتات الطبية بين هذه القبائل البدائية التي لم تتخط في حياتها معالم العصر الحجري لا تقتصر على الأفراد الذين يقومون بوظائف التطبيب ، وإنما تكاد تشمل أفراد هذه القبائل جميعاً . فالكثير من الأطفال يعرفون جيداً شكل هذه النباتات ويعرفون الغرض منها . وقد استطاع هذا الباحث بمساعدة أفراد هذه القبائل أن يجمع أكثر من ٢٥٠ نوعاً من النباتات الطبية . وتستخدم أغلب هذه النباتات في علاج أمراض المعدة والأمعاء ، والحمى والنزلات البردية وأمراض الجلد والاصابات . وهناك نباتات تخص النساء لمكافحة ما قد يعانون منه من أمراض ، وكذلك للوقاية من الحمل وللاجهاض (اسقاط الجنين) وللاستخدام خلال الحمل والوضع ولرعاية المواليد .

ويذهب شيفن هوفل الى أن علماء الحضارات الغربية يستطيعون التعلم من خبرات ومعارف هذه الجماعات البدائية ، على الرغم من مظاهرها المغايرة أو الغريبة .

وليس هذا بجديد ، فالطب الحديث قد استفاد كثيراً من معارف الطب البدائي القديم ، من أمثلة ذلك تلك الأدوية الفعالة التي نقلها عن النباتات الطبية مثل الكينين والاستركنين . ومن بين ذلك أيضاً الفلوكوسيد التي يستخدم في علاج أمراض القلب ، الى غير ذلك من النباتات التي تستخدم في حالات سرطان الدم الحادة .

ولكن الأمر لا يقف عند الاستعارة من وسائل العلاج المتوارثة وأدوية التطبيب التقليدية ، وانما يرى شيفن هوفل أنه من المفيد أن نتعرف على تصورات الحضارات الأخرى عن المرض والصحة فهذا ضروري «حتى يدرك الغرب ، أن واجبه أن لا يغرق هذه الحضارات بأساليب الطب الغريبة دون تمييز ، ففي الطب التقليدي لهذه الشعوب البدائية يكمن جزء كبير من موروثها الحضاري ، ومن جانب آخر فمن العسير على الطب الغربي أن يغطي الحاجات الأساسية لهذه السلالات والقبائل .

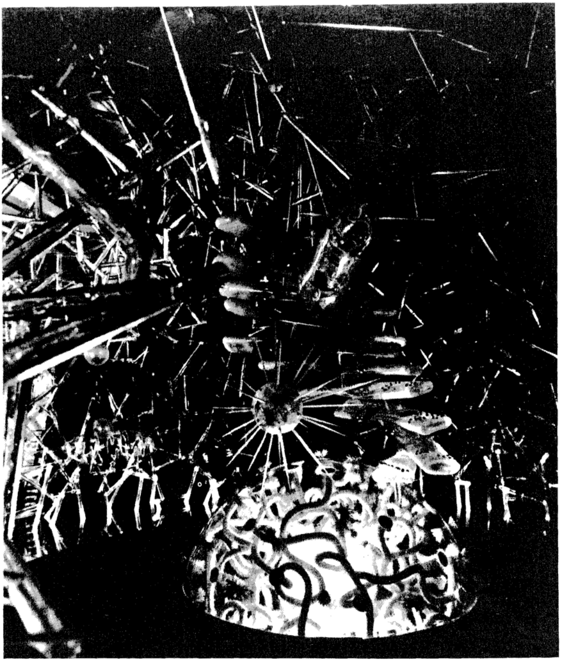

ملايين الخلايـا الانسـانية

هذا بالتأكيد صحيح ، ولكن السؤال الذي يلح علينا هو عما إذا كان طبنا الحديث يستطيع أن يغطي حاجات الناس الذين يعيشون في دائرة الحضارة الحديثة ، أي في دائرة حضارة هذا الطب . فقد يكون الطب البدائي ما هو مفيد لنا . يقول شيفن هوفل : « رأيت بنفسي مدى ما أحرزه المطببون من نجاح كبير في حالات مرضية مزمنة تصاحبها أعراض القنوط والاكتئاب . ويبرز تفوق وسائل العلاج المتوارثة بشكل واضح في حالات الاضطرابات النفسية الشديدة ، التي لا تجدي معها الأدوية الغربية ووسائل العلاج الغربية . »

ليس صاحب هذا الرأي من دعاة «العودة الى الطبيعة» ، وليس من المتشيعين لمثل هذه المقولات الساذجة ، ولكن نظرته التي تتخطى حدود الحضارة التي نبع منها ترى أكثر من تلك التي لا تعرف غير حدود البيئة المحيطة ، وتدرك ما لا تدركه النظرة المنحصرة في سجن الذات ، إن هدف عالم الطب الاثنولوجي أن يعرّف غيره بمعالم الطب التقليدي الذي يمارس في البلدان النامية ، ويسعى بهذه الوسيلة الى التوفيق بين فن التطبيب المتوارث والطب الحديث من أجل ايجاد السياسة الطبية التي تناسب هذه الحضارات والمجتمعات ، وهذه قضية تهتم بها منذ فترة منظمة الصحة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، فهي تسعى الى عقد حوار بين الأطباء في بلدان العالم الثالث وبينهم في الغرب ، والى تنمية التفاهم في هذا المجال الحيوي .

ليس الهدف هو خلق نظام طبي غربي في مجتمعات الدول النامية ، وانما ايجاد نظام طبي شعبي فعال . ثم إن الغرب يستطيع أن يتعلم الكثير من المعارف الطبية الممارسة في هذه المجتمعات . فالتفاوت بين الممارسات ظاهر للعيان ، وبوجه خاص في مجالات الحمل والوضع ، فهذا المجال تحكمه في الغرب الأجهزة التكنولوجية ومعارف العلوم الطبيعية ، بينما يتم في دول العالم الثالث على أساس تقليدي متوارث .

كيف تتم الولادة في الدول الصناعية الغربية ؟ في المستشفيات ، في جو اصطناعي ، وكأن الوالدة مريضة تجرى لها عملية جراحية . أما بين تلك الشعوب التي نسميها بدائية ، فالولادة عملية يومية طبيعية : «تلد الكثيرات في الهواء الطلق ، وأحياناً تحت المطر ، في حضور الأم أو الحماة التي تساند الوالدة بالفعل والقول . وتلد النساء وهن واقفات وجالسات ، على خلاف الأمر في المستشفيات الغربية حيث تلد النساء وهن راقدات ، وهو وضع يخالف الطبيعة الفسيولوجية لعملية الولادة» ـ وميزة الوضع الأول أن الجاذبية الأرضية الطبيعية تساند المرأة خلال الولادة، ثم أنها تستطيع الحركة وبالتالي تستطيع تدعيم عملية المخاض (الطلق) ـ القضية أن هذا بعيد عن تصورنا .

ما يتم هنا بهذه البساطة ، تقوم به المستشفيات الحديثة بواسطة الأجهزة الطبية المعقدة . لقد تحول عمل الداية أو المولدة اليدوي الى فرع مستقل من فروع الطب ، الى فرع يتطلب درجة عالية من الدراسة والتخصص . منذ سنوات قليلة كانت صالة الولادة المجهزة بجميع أجهزة الرقابة والمتابعة حلماً من أحلام التكنولوجيا ، أما الآن فقد أصبح الحلم واقعاً . فالرقابة المكثفة للأم والطفل خلال عملية الوضع تشمل قياس النبض والتنفس ودرجة الحرارة ، والدورة الدموية ودقات القلب . ويقوم في بعض الحالات ـ كما هو الأمر في المستشفى الجامعي بمدينة هيدلبرج ـ كمبيوتر مركزي بمراقبة جميع المعلومات التي ترد من صالة الولادة .

لا جدال في أن هذه المتابعة الدقيقة بالأجهزة قد ساهمت في خفض نسبة الوفيات بين المواليد ، ولكن الوجه الآخر لذلك أن الولادة قد فقدت طابعها «كحدث انساني» شعوري بالمعنى الدقيق ، كما يعلق على ذلك الطبيب الفرنسي فريدريك ليبوير . فشروط المراقبة الآلية تجعل الولادة كخبرة إنسانية حميمة من الصعوبة بمكان ، فكل شيء يتم وفق مخطط مقنن ومنظم ، ووفق روتين آلي ، وفي جو طبي معقم تحت ضوء ساطع . . . الخ .

لم يذهب ذلك النقد الذي وجهه الطبيب الفرنسي المذكور الى طرق الوضع المعملية هباء ، بل ترددت أصداءه في المانيا الاتحادية ، وطالب الكثيرون بأن توضع الأم والطفل في بؤرة الاهتمام خلال عملية الوضع لا أن ينظر اليها كعملية معملية

الهدف منها أن تلفظ الأم ذلك المحتوى الغريب الذي تحمله في رحمها . ويكفي أن نشير هنا الى «الألفاظ العلمية» التي تستخدم في صالة الولادة حتى ندرك ذلك .

قد لا تختلف لغة الأطباء كثيراً عن لغة الأجهزة الطبية الحديثة ، ولا مجال في هذه اللغة لحديث العواطف . وليس هذا بغريب ، فالمستشفى أو «بيت الطب» يغزوه الآن بتزايد المهندسون الذين يجهزونه بالمعدات والآلات ويقومون على صيانتها . يسيطر الكومبيوتر الآن على الحياة اليومية في المستشفى فهل يصبح الطبيب مجرد مساعد لرجل التكنولوجيا ؟ أيملك أفضل جهاز من يستطيع دفع ثمن هذا الجهاز ؟ أيتوقف الشفاء على حداثة الجهاز ؟ يعتقد الكثيرون في ذلك ويتهافتون على كل ما هو حديث ومعقد في هذا المجال ، وتبعة ذلك هي تحول المستشفيات الى «ورش اصلاح للآدميين» .

يعالج في المانيا الاتحادية في المستشفيات سنوياً نحو احد عشر مليون فرد . ويشكو المرضى من الاقامة في المستشفيات ، إذ يشعرون أنهم مجرد أرقام أو أسرة في حجرات . ويدرك الكثير من الأطباء الأضرار التي تلحق بالمرضى من جراء ذلك السيل المتدفق من الاجراءات المتعددة في سبيل تشخيص المرض ، ويعرفون جيداً شعور الضياع الذي يعاني منه المرضى في هذا المناخ الغريب الذي لا يدركون أسراره ونظمه . ودون شك فتلك الشكوى المتكررة من «عدم احترام كرامة الانسان» في المستشفيات تنبع في المقام الأول من البنيات التنظيمية المترتبة على هذا التجهيز التكنولوجي أكثر مما تنبع من سلوكيات الأطباء وهيئات التمريض .

ولكن يجب أن لا نسرف في الشكوى من تراجع «الشعور الانساني» ، فهناك الكثير من العوامل الأخرى التنظيمية والاقتصادية التي تتعارض مع احتياجات الانسان الأساسية . فالقضية ليست رهن الأطباء والممرضات وحدهم ، وانما تتطلب تعاون عالم النفس والشرف الاجتماعي والديني ورجال الادارة والمراقبة .

وبوجه عام يشكو المرضى من ظواهر بعينها : مثل الايقاظ المبكر ، قلة الاهتمام والتعاطف ، لغة الأطباء الغريبة ، وكذلك من الشعور بأنهم بلا ارادة تحت رحمة عالم من الأجهزة . وتحت هذه الظروف ليس من الغريب أن يفقد بعض المرضى كل رغبة في الحياة والمقاومة .

سئل عام ١٩٧٨ كارستن فيلمر ، رئيس غرفة الأطباء في المانيا الاتحادية ، عن العلاقة بين الطبيب والتكنولوجيا ، فأجاب دون تردد : «في الأعوام الماضية كنا نؤمن ايماناً كاملاً بالتكنولوجيا والعلم ، كنا واقعين تحت سحر التكنولوجيا ، وكنا نعتقد أن لا شيء في غير مستطاع إن توفرت لدينا الوسائل المادية . ولكن للطب حدوده . كان لا بد أن ندرك أن التكنولوجيا بالنسبة للطب وسيلة وليس هدفاً أو غاية ، إذ معنى ذلك ضياع جميع الأوجه الانسانية للطب» .

فلنع أن الطبيب في معطف الماكينة شيء بلا أمل ولا مستقبل . فللماكينات وظائفها المحدودة فحسب ، وليست أكثر الأجهزة تعقداً وأعلاها ثمناً أفضلها ، فهذا هو وهم البدائيين . بل العكر صحيح ، فكلما تعقدت الأجهزة كثرت المتاعب والاعطال . ثم إن انتاج الأجهزة يتتابع بسرعة . وليس من الغريب أن ينكشف سريعاً الايمان بالأجهزة بأنه خرافة وحماقة ، بل إن الأجهزة اللامعة تحجب عنا الرؤية وتقلل من قدرتنا على التعرف على المشاكل الحقيقية .

ما زالت على سبيل المثال الظروف التي ينشأ تحتها المرض أو التي تسبب المرض مباشرة ، ما زالت مجهولة أو غير مدروسة دراسة وافية ، وينطبق نفس الشيء على جوانب الطب الاجتماعية والوبائية . وهذه أبواب قد تدفع بعجلة الطب في الطريـق الصحيح . لم تفقد كلمة ديمقريط حتى الآن صحتها : «يصلي الناس للآلهة من أجل الصحة ، ولكنهم لا يدركون أنهم يملكون ذواتهم القدرة على الصحة والمرض» .

أعاد علم الطب الاجتماعي الى الأذهان أن وظيفة الطب المستقبلية ليست التغلب التكنولوجي على مصاعب تشخيص الأمراض النادرة وعلاجها ، وإنما البحث في أسباب الاضطرابات العصبية وأمراض البرد واليرقان والأمراض النفسية الجسمية ، وأسباب حوادث الطريق ، وتصلب الشرايين ، والسمنة المفرطة ،

ومرض البول السكري . ولكن العاملين في الطب الاجتماعي وفي أبحاث الأوبئة لا يشكلون حتى الآن غير ظاهرة هامشية في مجال الطب العريض .

ويعتبر المستشفى من المجالات الهامة لأبحاث عالم الاجتماع ، فالاقامة في المستشفيات لا تحل مشاكل المريض فحسب ، وإنما تخلق له جديداً من المتاعب . فالمريض يخضع في المستشفى كما ذكرنا من قبل لنظام صارم ، ويخضع كلية لارادة غيره في ارضاء حاجاته ، ويواجه أجهزة علوية لا يفهمها . وبوجه عام فهو مغلوب على أمره . أمن المحتم أن يظل نظام المستشفى على هذا النمط ؟ لا شك أن إعادة تشكيل المستشفى من الداخل للتغلب على هذه السلبيات من متطلبات المستقبل .

وليس لنا أن نهمل في هذا الاطار قضايا العلاج النفسي ، فما زال هذا الباب بعيداً عن بؤرة الاهتمام . ولذلك أسباب عديدة ، من بينها في ألمانيا هجرة جيل كامل من الأطباء النفسانيين بعد استيلاء النازية على الحكم عام ١٩٣٣ . وقد احتاج الأمر الى سنوات طويلة لتعويض هذا النقص . وللوصول الى المستوى العالمي في هذا الباب . وبالرغم من ذلك فما زالت الثغرة قائمة . هناك مؤشرات عديدة تشير الى الأهمية المتوقعة في المستقبل للعلاج النفسي ، فالاهتمام بهذا الفرع في اطراد مستمر في الجامعات ، إلا أن الكثير من الشبهات والظلال تحيط بميدان العلاج النفسي . فهل البدن أحق علينا من النفس واسقامها ؟

يتخوف الناس من المصابين بالأمراض النفسية والعصابية ، رغم أنهم يعيشون بيننا ويمارسون ما نمارس ، وكثيراً ما يكون مصيرهم الوحدة والعزلة . ومع ذلك فلا ننكر التغيير الذي طرأ أخيراً على نظرة الناس الى المصابين بالاضطرابات النفسية .

من المطالب التي نتوقعها من الطب هو أن يرضي حاجات المجتمع بقدر ما يرضي أيضاً حاجات المصابين والمرضى . فلم تعد مجالات اعادة التأهيل والوقاية غريبة على الطب ، وإن ظل المحور الذي يدور حوله بنيان الطب الضخم هو التطبيب والشفاء . ومن ثم تدخل الكثير من المجالات في ميدان الطب وفي مقدمتها : الاخلاق والتربية والاقتصاد والعدالة الاجتماعية . نعم قد تغلب الطب على الأمراض المعدية الخطيرة ولكنه يواجه الآن تبعات التغير الضخم في ظروف البيئة وفي أساليب الحياة في المجتمعات الصناعية .

ومن جديد يقف الطب في مفترق الطرق ويواجه أسئلة خطيرة حاسمة . بل هو مطالب بمطلب صعب للغاية ، وهو ألا يخضع لاغراء العلوم الطبيعية والتكنولوجية والادارية التنظيمية ، وأن يتحول الى مهمته الأصلية وهي العلاج عن طريق الرعاية والمشاركة والتعامل مع المريض .

IBN ZAYDŪN

ZWIESPRACHE MIT DER NACHT

Oh Nacht, sei lang! Ich fühle deine Kürze
nie mehr als dann, wenn ich bei ihr *verweile.*
Wenn diese Nacht der Mond bei mir die Nacht verbrächte,
müsst ich, oh Nacht, die Nacht nicht bloss mit deinem Mond verbringen.
Oh Nacht! Erzähl ihr, dass ich alle Erinnerungen geniesse, die du von ihr zu mir trägst.
Um Gottes Willen, sag, war sie mir treu?
Da kam die Antwort: »Nein. Sie übt Verrat.«

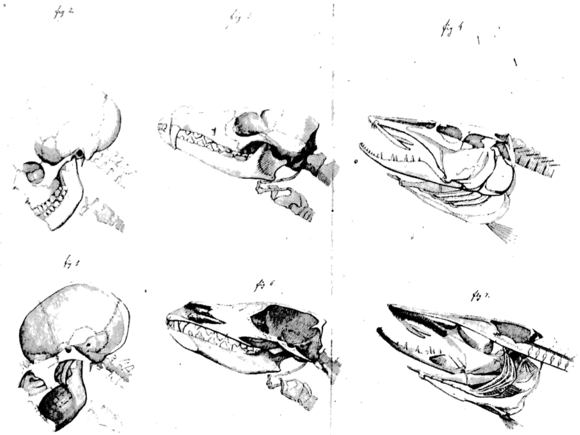

هندسة الجماجم ، من رسم الأديب الرومانسي لودڤيج تيك .

IBN ZAYDŪN

ACH, WENN DAS SCHICKSAL GEHORCHTE!

Wie konnte das Schicksal mich einsam lassen, warst du doch meine Gefährtin?
Weshalb ist für mich der Tag so dunkel, wo du meine Sonne bist?
Sä' ich nicht Sehnsucht in deine Neigung
und ernte nur Tod als Frucht meiner Saat?
Ja, meine Treue hast du mit Verrat entgolten,
und grundlos mein Gefühl für nichts verkauft.
Wollte das Schicksal meiner Weisung folgen,
mein Leben gäb' ich, dich von seinen Übeln zu erretten.

من أقدم تصاوير الخيـــل .
نقوش حائطية تصور الخيل . في كهوف لاسكو ، فرنسا ، نحو ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد .

هلموت فون مولتكه

العربي وفرسه

كادت الصفقة أن تتم ، فقد أعجب الباشا بالفرس ، واستغرق التفاوض مع القبيلة العربية زمناً ، وأخيراً اتفق الطرفان على الثمن وحدداه بمبلغ ستين كيساً ، أي بنحو ستمائة مارك .

وفي الموعد المتفق عليه أقبل شيخ القبيلة الى قصر باشـا «ماردين» ومعه الفرس . ولكن الباشا التركي راوده الأمل في تخفيض الثمن ، فما قد حضر اليه العربي ، وما عليه غير أن ينتقص من قيمة الفرس وأن يثور ويزبد إن اقتضى الأمر . ولكن الشيخ العربي رفض في أنفة شديدة أن يتنازل عن فلس واحد . فما كان من الباشا التركي إلا أن ألقى اليه الثمن في غضب وهو يصيح بأن العربي يسلبه ماله ويعطيه مقابلاً أقل قيمة .

نظر اليه الشيخ العربي في هدوء دون أن ينبس . ثم جمع الأكياس ووضعها في عباءته البيضاء التي يلتحفها ، ونزل الادراج الى الحوش لكي يودع فرسه . واقترب منه وغمغم اليه بكلمات في أذنه ومسح بيده على عينيه وجبهته ، ثم فحص حوافره ، وسار بخطوات وئيدة حوله . ثم فجأة قبل أن يدرك اتباع الباشا ما حدث ، قفز على ظهر الفرس العاري واندفع به الى الخارج .

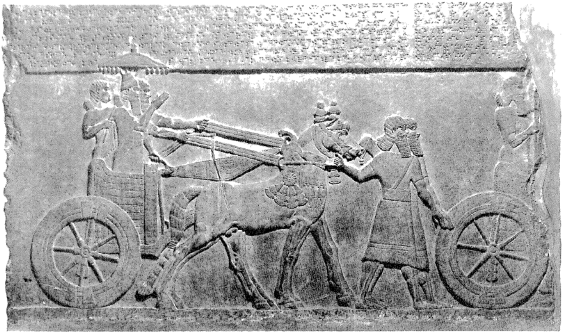

من العصر الأشوري ، القرن الثامن قبل الميلاد . الملك تيجلت الثالث (٧٢٧ ـ ٧٤٥ قبل الميلاد) في عربته الملكية . نقوش على الجدران .

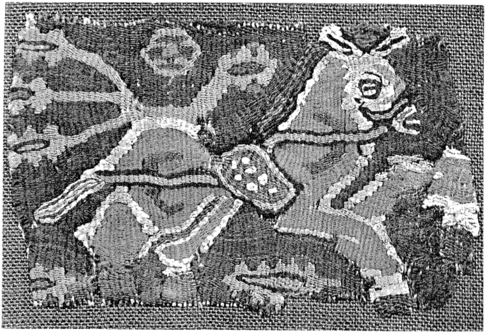

ثوب مطرز برسوم للخيل . مصر نحو القرن السابع أو الثامن بعد الميلاد . كتان . متحف ابيج . برن ، سويسرا .

رأس حصان . الصين ، الدولة السادسة (٢٢٢ ـ ٥٨٩ بعد الميلاد) .

رأس حصان ، أثينا ، اليونان ، القرن الخامس قبل الميلاد .

فارس بامبرج ، نحو عام ١٢٣٧ .

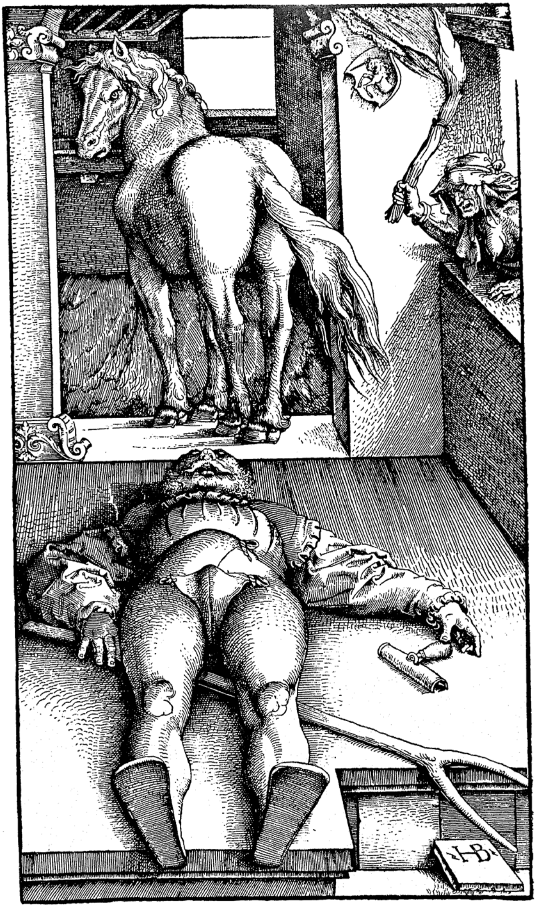

هنز بلدونج جرين (١٤٨٤ ـ ١٥٤٥)
، عامل الاصطبل في عالم النوم .

عامل اصطبل تركي ومعه حصان عربي . القرن التاسع عشر .

من المعتاد في الشرق أن تظل الجياد مطقّمة ليل نهار ، أي تحمل سرجاً من اللباد ليل نهار ، ومن المعتاد أن توجد في اصطبلات كبار القوم بعض الجياد المجهزة المعدة للامتطاء في جميع الأوقات . هذا على خلاف عرب البادية الذين لا يجهزون جيادهم بمقود أو زمام ، حيث يكتفون بغمز الجياد لايقافها ، وبتوجيهها الى اليمين والى اليسار بضربات خفيفة براحة الكف على الأعناق .

ومن ثم فلم يطل الأمر ، إذ انطلق اغوات الباشا فوق الجياد يطاردون العربي الهارب . كادوا أول الأمر أن يلحقوا به ، ففرس العربي ليس ذا دربة على العدو فوق الأرض المبطن بالحجر . وكان على الفرس أولاً أن يقطع الطريق المؤدي من قصر الباشا الى نهاية المكان . ولكن ما كاد فرس العربي أن يجتاز هذا العائق حتى اندفع مجنحاً كأنه يسبح بين الرمال والهواء . وما من عائق يعوقه . ولكن ما كان بود العربي ان يختفي عن أعين مطارديه وانما أن يظل قريباً منهم بعيداً عنهم ، أن يراودهم ويقعدهم في نفس الآن . فها هم كل لحظة يأملون اللحاق به ولكن هيهات . والأغرب أن العربي لا يجهد نفسه أو فرسه ، وانما يتمهل حيناً ويسرع حيناً آخر .

استمرت المطاردة على نفس المنوال حتى هبط قرص الشمس من علاه وانسحب ماضياً في دورته حتى كاد يغيب عن الأنظار ، وغامت الدنيا في أجواء الغسق . في هذه اللحظة اندفع العربي بفرسه وكأنه يودع مطارديه مخلفاً وراءه زوبعة من التراب .

لا يدوم الشفق في الشرق الا فترة وجيزة ، وسرعان ما اختفى العربي وفرسه وهبط الظلام .

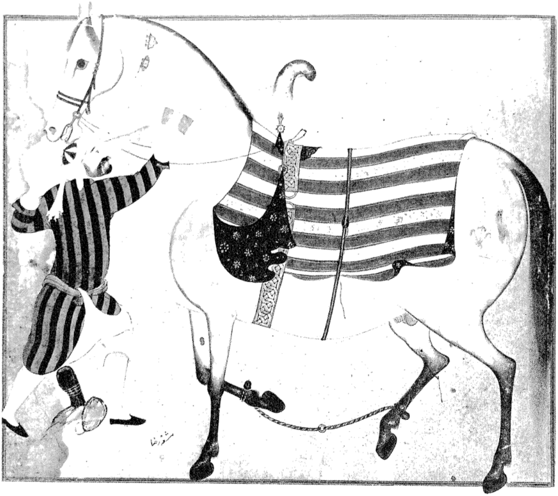

عامل اصطبل مع حصان . منمنمة فارسية . نهاية القرن السادس عشر .

كانت قد مضت ساعات طوال على الأغوات الأتراك في تلك المطاردة الغريبة . وها هم بعد نهار كامل يقفون في منتصف الصحراء دون زاد أو ماء . فما كان لهم غير أن يكروا عائدين ، ليعلموا سيدهم التركي بخيبتهم ، وبأنه فقد الفرس والمال . عاد الأغوات في الليلة الثالثة ، وقد كاد الجوع والعطش أن يقضيا عليهم وعلى جيادهم . ولعلهم كانوا سعداء بأنهم لم يقضوا نحبهم . ولكنهم عادوا أيضاً بغضبهم وحنقهم على ذلك العربي الذي غدر بهم ، وإن اعترفوا فيما بينهم بأن فرسه بلا ثمن وأن الباشا قد أخطأ في التهوين من شأنه .

في صباح اليوم التالي بعد أن أذّن المؤذّن لصلاة الفجر سمع الباشا صوتاً يناديه ، ثم سمع صهيل جواد في الحوش ، فأطل من طاقة فرأى العربي والفرس . ثم سمع الشيخ العربي يناديه ويسأله : «يا سيد أتريد نقودك أم تريد الفرس ؟»

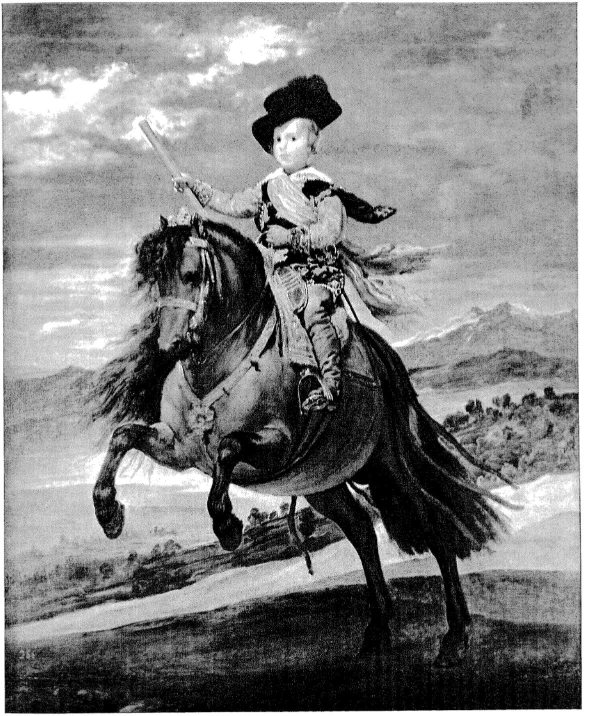

من عمل الفنان ديجو ده ڤالسكس (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠) ، الأمير بالتهازر كارلوس . نحو عام ١٦٢٤ . مدريد .

فرنس كروجر (١٧٩٧ ـ ١٨٥٧) . نزهة الأمير ڤيلهلم (القيصر الألماني فيما بعد) مع الرسام عام ١٨٣٦ . متاحف الدولة . الجاليري القومي . برلين . ◄

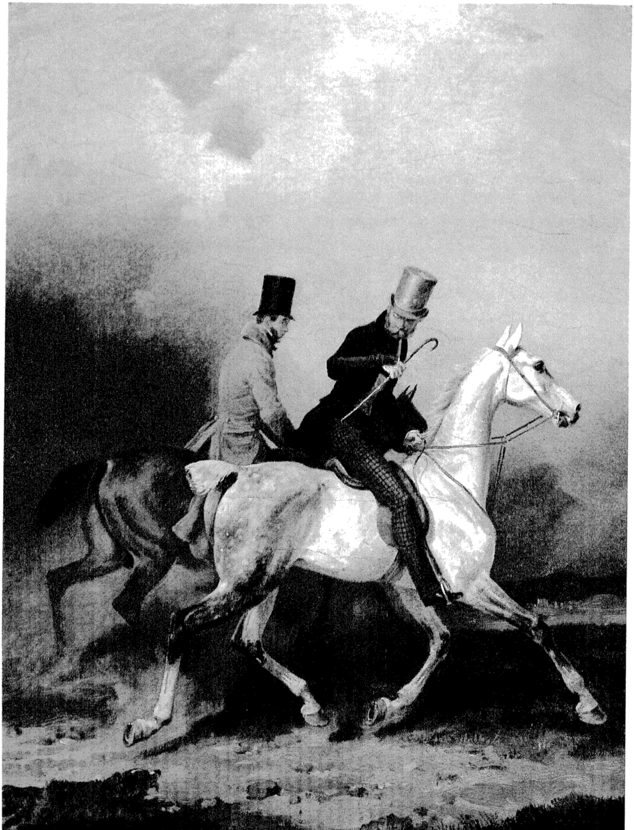

هانز روبرت رومر

ريشارد هارتمان

بمناسبة مرور مائة عام على ميلاده

يصادف هذا العام مرور مئة سنة على ميلاد ريشارد هارتمان Richard Hartmann . ويعلم من حالفه الحظ وتلقى عنه العلم ما كان عليه من معرفة واسعة على الرغم من مظهره المتواضع . كان بفضل إلمامه بعلوم اللغة من معالجته الصادقة للمسائل التاريخية أستاذاً مثالياً يشجع تلامذته بروح طيبة ويقودهم بعناية دائمة الى مصادر العلم ومراجعه . ويصعب إبراز أهم أعماله من بين نتاجه الخصب ، فقد ظهرت هذه الأعمال في الأعم في صورة أبحاث قصيرة . وقد استحق مدخله الى دراسة «الاسلام» منذ أمد طويل طبعة جديدة ، فهو كمقدمة لدراسة الدين الاسلامي من أرصن المؤلفات وأبعدها عن التحيز . وقد شملت اهتمامات هارتمان حقولاً كثيرة ابتداء من المعري ، الذي كرس لكتابه «الفصول والغايات» مقالة بعيدة الأغوار ، وانتهاء بمشاكل تركيا الحديثة . ويعتبر وصف رحلته «في الأناضول الجديدة» الذي ظهر عام ١٩٢٧ من أوائل الدراسات الوصفية لتركيا في عصر كمال أتاتورك ـ وهو عمل يستحق الدراسة حتى اليوم ، حيث وصف هارتمان المشاكل الرئيسية ، وكذلك التطور الايجابي المقبل في تركيا الجديدة بتفهم وحس نابض .

وإحياء لذكرى هذا المستشرق العظيم فاننا نورد فيما يلي كلمة النعي التي نشرها الأستاذ هانز روبرت رومر في مجلة جمعية الاستشراق الألمانية بعد وفاته عام ١٩٦٥والتي ترسم صورة تذكارية جميلة لشخصية ريشارد هارتمان العلمية .

ولد ريشارد هارتمان في ٨ يونيو (حزيران) عام ١٨٨١ في نويكرشن في وادي تاوبرتال لأب من رجال الدين هو القس موريتس هارتمان ، وتلقى دراسته الثانوية في ميرغنتهايم وماولبرون وبلاوبويركا بنية التخصص في دراسة اللاهوت مستقبلاً . وبالفعل فقد التحق من الفصل الشتائي من عام ١٨٩٩ بجامعة توبنجن وكرس نفسه لدراسة اللاهوت فيها مدة خمسة أعوام حتى اجتاز امتحان الخدمة اللاهوتية الأول في خريف عام ١٩٠٤ . ولكن كيف حدث أن ريشارد هارتمان لم ينهج النهج الذي رُسم له منذ البداية ، وإنما اتجه نهائياً الى أحد تلك الحقول العلمية التي كانت تعتبر في الأوساط العامة على حد تعبيره «هوايات خاصة» ، أو ، كما يقال ، «موضوعات ترف علمي») ؟

لقد أجاب بنفسه على هذا السؤال في كتاباته ، وعلى الأقل في المواضع التي على المرء أن يبحث فيها عن الجواب ، كسيرة حياته المدرجة في أطروحة الدكتوراة أو في خطاب افتتاح مدرجه التعليمي عند تعيينه في الأكاديمية البرلينية للعلوم . ولكن هذا الجواب يتضح بصورة أجلى خلف حقائق كثيرة في حياته : إذ نعلم أنه تعلم العبرية بسهولة مدهشة في المدرسة ، وأنه درس في الجامعة اللغات السامية الى جانب اللاهوت ، كما أنه ، بعد اجتياز امتحان اللاهوت في الفصل الشتائي ١٩٠٤/١٩٠٥ ، توجه الى برلين لمتابعة الدراسة ، حيث درس على يد فريدريش ديليتش وهوغو ڤنكلر وأدولف ايرمان ، وكانوا من مشاهير المتخصصين في الشرق القديم ومصر ، كما درس على مارتن هارتمان الذي كان يمثل الدراسات العربية والتركية الحديثة في معهد اللغات الشرقية . وكما يبدو فقد كان القرار بالتخلي عن المدرج اللاهوتي قد سبق التصميم على الدراسة في برلين . ومن المحتمل أن الدراسات الشرقية كانت قد اجتذبته منذ البداية أكثر مما فعلت «الدراسة المتخصصة الرسمية» ، كما ألمح بنفسه بذلك لدى معلمه وأستاذه في توبنجن كريستيان فريدريش زايبولد الذي اتخذه مثلاً أعلى . وتبدو العلاقة بينهما واضحة من رحلة مشتركة قاما بها الى شمال افريقيا بمناسبة انعقاد مؤتمر المستشرقين العالمي الرابع عشر في الجزائر

في ربيع عام ١٩٠٥ ، وبوجه خاص ، من كلمة النعي الشخصية التي رثى بها زايبولد عند وفاته .

حصل هارتمان على ثقافته الأساسية في حقل الاستشراق لدى زايبولد ، الذي أشرف على تخرجه بدرجة الدكتوراة في ١٧ يناير عام ١٩٠٧ . ومهما كانت علاقة التلميذ بأستاذه من وثوق ، الا أن مرد الايحاءات القوية لانتاجه العلمي الحياتي قلما تعود الى الاستاذ وحده . فقد كان زايبولد وظل ، رغم اتساع اهتماماته ، عالماً لغوياً الى أبعد الحدود . ولم يتضح هذا من مؤلفاته فحسب ، وإنما كذلك ، وبوجه خاص ، من الحدة الغريبة التي كانت لا تتورع عن بلوغ درجات الشذوذ في تقاريظه اللغوية ، مؤرخاً حضارياً بمفهوم ياكوب بوركهاردت حتى أنه اعتبر بحق «المؤرخ المفطور للعالم الاسلامي» . ومن وجهة النظر هذه ، فقد تلقى ايحاءات وتأثيرات أقوى من أساتذته البرلينيين ، وربما كذلك من المؤرخ الكنسي المرموق كارل هول ، أحد أساتذته في توبنجن . الا أن الدافع الأكبر نجم عن جاذبية علم جديد جداً آنذاك ، علم كان يشق طريقه في الحياة الأكاديمية ، ونعني بذلك «علم الاسلاميات» . وما يسمح لنا بهذا الاستنتاج هو بعض تصريحاته ، ككلمة النعي المؤثرة التي نشرها بمناسبة وفاة إيغناتر غولدتسيهر «مبدع علم الاسلاميات لحقل علمي يتمتع بمسائله وطرق بحثه الخاصة».

واذا راجعنا اعمال ريشارد هارتمان الكاملة ، نستطيع التميز بين ثلاثة حقول بحث مختلفة ، رغم ما بينها من تداخل : فالأول يشتمل على أبحاثه العلمية ، وهي منشوراته العلمية المتوفرة بين أيدينا ، والثاني يتعلق بفاعلية الاستاذ الجامعي ونفوذه الأكاديمي ، والثالث يتناول عمله ونشاطه في خدمة الباحثين الآخرين والجيل الصاعد من العلماء ، أي تنظيم البحث والعمل العلمي . وقد كرم ألبرت ديترش خدمات المتوفي وعددها بكثير من التقدير في كلمة نعي ممتازة ١) ، تحتوي على عدد كبير من الملاحظات والتفاصيل لا نود تكرارها هنا . إذ نود أن نقتصر في هذه المقالة على بعض الانطباعات والأفكار ذات الطابع الشخصي ، بحيث تكتمل بها الصورة .

تشكل كتابات هارتمان المنشورة ، التي تزيد عن الخمسمئة

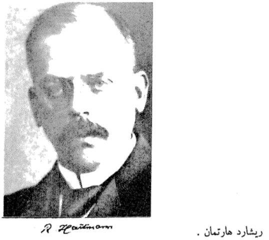

ريشارد هارتمان .

عدداً ، وحدة لا تُخطأ ، اذا ما نظرنا اليها من وجهة نظر علم الاسلاميات ، الذي كان يعنيه بوجه خاص . وقد حدد بنفسه محور دراساته ومنطلقها ألا وهو التاريخ الاسلامي لأواخر العصر الوسيط متناولاً في ذلك خطوطاً تعود الى ما قبل هذه الفترة وممتدة الى ما بعدها . وبالفعل فان اطروحته للدكتوراة ، وموضوعها يتعلق بالطوبوغرافية التاريخية لفلسطين وسوريا اعتماداً على مؤلف عربي من القرن الخامس عشر ، تكشف عن هذا الهوى الخاص ، الذي يظهر متكرراً بعد ذلك في كتاباته . ويتعلق الأمر هنا بتاريخ المماليك الذي كرس له جزءاً كبيراً من دراساته وأبحاثه . وقد رأى بنفسه كيف أثمرت أبحاثه وأدت مفعولها الخلاق ، حيث نذكر مثلاً واحداً فقط من نتاج الأعوام الأخيرة : فتحقيقه ونشره لمقتطفات من تاريخ ابن طولون (١٩٢٦) ، وهو يعتبر درة من درر الأساليب التاريخية النقدية ، دفعا بالباحث المصري محمد مصطفى الى نشر هذا العمل بكامله .

في ذلك الحين كان فجر الاسلام وفن الشعر العربي ومراحل التطور حتى فترة اضمحلال الحضارة العباسية ، أي القرون الأربعة الأولى للهجرة ، تعتبر المورد الرئيسي الذي كان الباحثون في الاسلاميات يفضلون الاغتراف منه ، بينما نظر الى الفترة التالية باعتبارها عهد الركود والانحطاط التدريجي للحضارة الاسلامية . ولكن هارتمان ساهم كثيراً ، بفضل انجازاته المقنعة ، في تصحيح هذه الفكرة الضيقة المحدودة ، التي لم تتغير تماماً حتى اليوم ؛ إذ أدرك أن

تلك القرون التالية قد رسخت «أشكالاً جديدة ثابتة ، وان ازدادت ضيقاً فيما بعد ، . . . للحركات الفكرية» . . . رأى في تغلغل العناصر الشعبية التركية في العالم الاسلامي في عملية بطيئة في البداية ، ما لبثت ان اشتدت حتى أصبحت عاصفة جارفة كالفيضانات أخيراً ، راى في ذلك عملية شبهها بموجات الهجرة الجرمانية . وكما أدت تحركات القبائل الجرمانية وتدفقها على العالم الموحد للحضارة الغربية القديمة الى تكوين القوميات الأوروبية ، فقد نشأت ، بسبب تغلغل الأتراك في أرض الخلافة بحضارتها الاسلامية الموحدة أيضاً ، شعوب الشرق الأدنى المختلفة بالمفهوم الحديث . ومضى خطوة أخرى أبعد من ذلك : فقد رأى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ذلك العصر الذي تحقق فيه الفصل الأعظم في تاريخ الشرق الاسلامي ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، بل وكذلك من حيث التطور الفكري أيضاً . وقد تمثلت أهم الأحداث - وتعتبر بالنسبة الى الملاحظ الأوروبي المرحلة التمثيلية لكل هذه العملية التاريخية - في نشوء ونهوض الدولة العثمانية ، التي بلغت احدى ذراها بغزو قلب البقاع العربية وسوريا ومصر في بداية القرن السادس عشر . وكل ما تلا ذلك ، وحتى المشاكل الحاضرة للعالم الاسلامي تعود بذورها الى هذين القرنين .

ولا يستطيع المرء أن ينكر على هارتمان الحق في ابلاء مثل هذا الرأي المتطرف ، وقد عالج في عدد من أبحاثه الرئيسية مشاكل الدولة العثمانية ، وكذلك وبوجه خاص العلاقات والأحداث التي سبقت انهيارها أو سببته أو صاحبته ، بالاضافة الى دراساته عن تركيا في العصر الحديث . وهنا يمكننا البحث عن منطلقات اشتغاله «بتاريخ حاضر العالم العربي» ، على حد تعبيره . في عدد من الدراسات عن القومية العربية بحث في أسباب هذه الظاهرة ونشوئها وخصائصها ، بحيث ساهم بذلك في فهم الوضع السياسي لعصره ، وكذلك للتطورات التالية ، الجارية في عصرنا . وقد تمكن حسّه الثاقب من كشف النقاب عن حقائق مثيرة ، أصبح بعضها اليوم جزءاً من التراث العلمي العام . وفي هذا المجال لا ننسى ذكر رحلاته الى الشرق . ففي هذه الأسفار كان يبحث ويجد الفرصة ، في اللقاء الحي مع طبيعة وسكان البقاع التي يدرسها وكذلك مع شواهد الماضي ، ليفحص مدى صحة المعارف التي اكتسبها وكونها لنفسه قبل ذلك . بعد الرحلة المذكورة سابقاً الى شمال افريقيا عام ١٩٠٥ ، حيث تعرف على الجزائر وتونس ، سافر في الربيع التالي الى فلسطين لمدة خمسة أشهر عبر مصر ، كما قام في العشرينات برحلتين الى تركيا . والواقع أنه هو أيضاً كان يبحث في الماضي التاريخي عن تفسيرات لما يجري في العصر الحاضر من أحداث . الا أن ما يثير الانتباه هو مدى الأهمية التي كان يوليها الى جانب ذلك للعملية في الاتجاه المعاكس ، عندما يشير الى أنه في السعي الى تفهم القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان يستعين «بالحدث الجاري أمام أعيننا . اذ ان من الأمور البديهية أننا . . . معشر المستشرقين نستكشف ادراك الماضي التاريخي ، بقدر الامكان ، مما يجري اليوم في نفس الأماكن ولدى نفس البشر» .

الا أن هذا القول لم يكن أمراً بديهياً منذ ربع قرن ، كما أن قائله كان برأيه هذا سابقاً في الزمن لبعض معاصريه من المستشرقين . ومن الطبيعي أن كثيراً من المستشرقين كانوا آنذاك وقبل تلك الفترة أيضاً يعرفون المعمورة الاسلامية معرفة شخصية بالمشاهدة ، الا أنه كان يدافع عن الرأي القائل بأن زيارة العالم الاسلامي لا ضرورة لها ، لأنه يمكن ، إن لم يكن من الأفضل ، أن تعالج المسائل العلمية الخاصة بالشرق وتحل وراء المكتب المنزلي . لم تعم صلاحية المبدأ القائل بوجوب الاقامة الطويلة في الشرق كشرط طبيعي لمدرج حياة المستشرق الا في الفترة الأخيرة . وانه لمن فضائل هارتمان وخدماته تشجيع هذا المبدأ قولاً وفعلاً .

ومن الخيوط التي اتبعها الباحث والممتدة الى ما قبل الفترة التي انصب عليها اهتمامه نذكر في المقدمة دراساته حول مبادىء الاسلام التي عرضها في كتابه «دين الاسلام (١٩٤٤) وهو عرض رائع ما زال يتمتع لدى القراء حتى اليوم بحب خاص ، سواء منهم طلبة علم الأديان أو طلبة الاسلاميات. وقد سبقت هذا الكتاب ففترة طويلة دراسات كانت وما زالت موضع تقدير حول التصوف الاسلامي ، وهي الدراسات التي بدأها عام ١٩١٤ ببحث اجازة التدريس الجامعي في كيل حول متصوف هام من القرن الحادي عشر . وبهذه الدراسات

اشترك في النقاش الدائر حول موضوع للبحث توصل فيه حقل الاسلاميات العالمي في النصف الأول من القرن العشرين الى سلسلة من أجمل نتائجه ٣) .

لقد كانت أبحاث هارتمان التي ذكرناها سابقاً وثيقة الاتصال بدروسه الأكاديمية . اذ كانت مبادىء الاسلام ، كشرط لا بد منه ، تعالج استناداً الى نصوص مختارة بعناية في الحلقات الدراسية التي تربط كاتب هذه السطور بها ذكريات حية لفصلين دراسيين في برلين يعودان الى ثلاثين سنة خلت . واذا كان النص مقتطفاً من شرح تشريعي كان يبدو جافاً لأول وهلة أو من تأليف كاتب عربي عصري ، فقد كان هارتمان يعرف كيف يضعه في مكانه المناسب من العرض التاريخي الحضاري بطريقة تضمن اهتمام الطلبة وتشوقهم للاطلاع . وكان يشرح بعض المواضع في النص بعرض تجاربه الخاصة وسرد ملاحظاته الشخصية في الشرق ، حيث كانت تبرز روحه المرحة . وفي احدى محاضراته كان يعالج التيارات السياسية والثقافية في تركيا الجديدة . وهنا ظهرت الى جانب عرضه الرزين المتزن سلامة في الحكم الى جانب موقف ناقد ، لا بل متشكك ، ازاء التسرع في تفسير الأحداث الأخيرة والحكم عليها ، كما كان المرء يصادف الكثير من ذلك في الغالب . ويدرك المرء من جميع أقواله وآرائه اهتماماً شخصياً عميقاً بموضوع البحث ، الى جانب حبه للشرق . وكان هذا العالم الذي كان يبدو عادة خجولاً قليل الكلام ، لا بل منطوياً على نفسه ، يتفتح منطلقاً منفرج الأسارير أثناء التدريس في ندواته العلمية . وكان يمتاز في سلوكه بوجه خاص بالمامه الكامل بالمادة الى جانب روح الصبر والتفهم والمراعاة ازاء طلبته ومساعديه . وكانت هذه الصفات تخلق في الدرس جواً لا يصادفه المرء في كل مكان ، دون أن يفقد الاستاذ بذلك شيئاً من تأثيره ؛ فكان يتوفر له دوماً عدد كاف من المستمعين الشاكرين .

وجزاء على انجازاته في حقلي البحث والتعليم ، وتشهد على ذلك استدعاءاته للتدريس في جامعات لايبزغ (١٩١٨) وكونيغزبيرغ (١٩٢٢) ، وهايدلبرج (١٩٢٦) وغوتنجن (١٩٣٠) يعتبر تكليفه بالتدريس في جامعة برلين عام ١٩٣٦ التقدير الذي استحقه وذروة مدرجه الأكاديمي . وفي ذلك المركز الفريد للاستشراق الألماني كان من الممكن لهذا العالم أن يكون سعيد الحظ تحت ظروف طبيعية في أن يتمكن ، وقد بلغ الخامسة والخمسين ، من جمع المحصول الكامل لأعماله العلمية خلال حياته بكل هدوء وطمأنينة . وتكفي بنظرة الى فهرس مؤلفاته وأعماله لترينا خصوبة انتاجه خلال الأعوام البرلينية . الا أن الأمر غير المألوف تماماً ، هو ما كان يتظره من محن وتجارب وأهوال ونصائب وآلام شخصية ، وكذلك من نجاحات ، ظل يحرزها حتى بلغ سناً متقدمة .

وهنا نواجه الحقل الثالث من حقول العمل التي تشتمل عليها حياة ريشارد هارتمان ، ونعني بذلك التنظيم العلمي والرعاية الخالصة المجردة لانجازات غيره ، والاهتمام بمستقبل العلم .

ونجد ذلك قبل أي شيء آخر عند الانطلاق من اشتراكه في عمل النشر الذي بدأ عام ١٩١٠ . فقد اشترك آنذاك في قلم تحرير دائرة المعارف الاسلامية في لايدن بهولندة ، التي ظهر اسمه بين الناشرين على غلاف المجلد الأول الذي صدر منها عام ١٩١٣ . وهنا أتيحت له فرصة التعرف على طبيعة ومشاكل التعاون مع عدد كبير من العاملين من جميع أطراف العالم . ولا شك أن المهمات التي كان عليه أن ينجزها لم يصعب عليه حلها ، والا لما تمكن بسهولة من الاشتراك في رئاسة تحرير صحيفة الاستشراق الأدبية Orientalische Literaturzeitung ١٩٢٨ ، التي تولى اصدارها عام ١٩٣٥ ابتداء من المجلد ٣٨ تحت اشرافه الخاص ، والتي ظل يصدرها حتى المجلد ٥٦ عام ١٩٦١ . واذا لم يكن قد اقتصر في عمله لدى دائرة المعارف الاسلامية على مراجعة أعمال الأخرين ، بل وساهم بنفسه في كثير من المواد . فان نصيبه الخاص من مقالات المجلدات التسعة والعشرين من صحيفة الاستشراق الأدبية التي كان مسؤولاً عنها ليعتبر أكبر بكثير .

وفي عدد كبير من المقالات الخاصة بتقريظ الكتب والشروح التحليلية يتضح ميل كبير الى هذا النوع من العمل العلمي . ولا يعجب المرء في تقريظه الناقد للكتب بعمق معرفته

الاختصاصية فحسب ، بل وكذلك بأسلوبه الأنيق وكذلك وبوجه خاص بانصافه الذي لا يعرف التغرض . وقد وضع نصب عينيه عندما تولى اصدار صحيفة الاستشراق الأدبية بعد وفاة سلفه ڤالتر ڤريتسينسكي نفس الهدف الذي اختطه هذا ، وهو تحويل هذه الصحيفة الى مجال يشترك فيه جميع مستشرقي المانيا والخارج دون تمييز في الأراء والمدارس والاتجاهات كعاملين دائمين . ومن الطبيعي أن أحداث الساعة وظروف الحرب وما بعدها عرضت هذا المشروع الى أخطار جسيمة . ففي عام ١٩٤٤ اضطرت الصحيفة المذكورة الى التوقف عن الصدور . ولا يستطيع غير المعني بالأمر أن يدرك مدى الجهود التي بذلت لاعادة احياء هذه الصحيفة بعد ذلك بتسعة أعوام .

لقد قام الاستشراق البرليني في كثير من الوجوه بعد الحرب بنفس الصورة التي قدمتها العاصمة الألمانية : الدمار والخراب في كل مكان ، وبشر متفرقون في كل اتجاه ، يرزحون تحت أسمال البؤس وضغط الحاجة . وتلفت الكثير من القتب والمواد العلمية أو ضاعت أو نقلت الى أماكن مجهولة . وتهدمت مبان كثيرة كانت في الماضي مراكز للبحث العلمي ، بالاضافة الى ما حدث في برلين حيث انقسمت المدينة الى شرق وغرب . وتحت هذه الظروف ، كانت الجرأة في الاقدام على بداية جديدة تعني الكثير بالنسبة لرجل قارب السبعين ، ولم يكن يتمتع طول حياته ببنية جسدية قوية ، وقد خارت قواه بعد انهيار عاصمة الرايخ ، ولكن بوجه خاص بسبب الغموض الذي خيم حول مصير ولديه اللذين شاء القدر ألا يعودا من الحرب .

إلا أن هارتمان لم يستسلم : فقد عاود العمل في الجامعة وفي الأكاديمية ، التي كان ينتمي اليها منذ ٢٩ أبريل ١٩٣٩ كعضو نظامي ، بطاقة وصمود ، وأصبح ، عند تكوّن «معهد الأبحاث الشرقية» في أبريل عام ١٩٤٧ ، مديراً لهذا المعهد . وقد حددت حقول مهمات هذا المعهد على الشكل التالي : «الجمع بين الأبحاث التي تقوم بها سابقاً كل من الأكاديمية وجامعة برلين وكذلك المتاحف ومعهد اللغات الشرقية في حقل الدراسات الشرقية ، بالاضافة الى خوض مشروعات علمية جديدة في حقل علم اللغات والآثار والتاريخ الحضاري للمشرق . وهناك أقسام لأبحاث الكتابة المسمارية وللدراسات العربية والتركية والايرانية والهندية والآسيوية الشرقية ، بالاضافة الى الدراسات المصرية القديمة والدراسات الافريقية [٤]) . وظل هارتمان ، الذي احتفظ بكرسيه الجامعي في جامعة هومبولدت حتى عام ١٩٥١ ، وهو عام تقاعده ، ظل لمدة عشر سنوات تقريباً مديراً للمعهد ، وعندما تولى هيرمان غراپو هذه المهمة عام ١٩٥٦ ، أصبح رئيساً للهيئة الادارية حتى عام ١٩٦٠ . وتحت اشرافه وتأثيره الحاسم ترعرع ونشأ في برلين مركز جديد لرعاية الاستشراق ما لبث أن امتاز في فترة قصيرة بسبب انجازاته ولا حاجة بنا الى خوض التفاصيل في المشرعات التي نشأت في اطار هذا المركز في هذا المجال لسبب واحد فقط ، وهو توفر التقارير الرسمية حول ذلك . . ويجدر بنا أن نذكر على أي حال أن سلسلة المنشورات التي أصدرها المعهد تحت اشراف هارتمان بلغت أكثر من خمسين مجلداً .

لقد مهد المأسوف عليه السبل أمام تأسيس وبناء المعهد للأبحاث الشرقية في عمل دؤوب ، كما أعاد الحياة الى مشروعات مهملة ، وشجع كثيراً من الزملاء في الاختصاص لاقتحام موضوعات جديدة وضمن لكثير من المستشرقين أماكن للعمل . وظل لعدة أعوام يدوام على ارتياد المعهد يوماً بعد يوم ، رغم مشقة الطريق اليه في كثير من الأحيان . وعندما بدأ فريتز هينتسه عام ١٩٥٣ ، أي في نفس السنة التي أمكن لجريدة الاستشراق الأدبية أن تظهر من جديد ، في اصدار المجلة الاعلامية لمعهد أبحاث الشرق :

Mitteilungen des Instituts für Orientforschung

نشر في مجلدها الأول مقالات كتاب تذكاري قدم الى ريشارد هارتمان بمناسبة بلوغه السبعين . وعلى صفحة الاهداء كتب مساعدوه يشكرونه على التشجيع الشخصي والعلمي الذي قدمه لهم . ويتضح تقدير أعمال هارتمان ومنجزاته من مؤلف تذكاري آخر ظهر قبل ذلك بالمناسبة نفسها . . وتعتبر وحدة الموضوعات التي عولجت فيه تقديراً خاصاً لاتجاه أبحاث المحتفى به .

ترجمة : محمد علي حشيشو

١) Jahrbuch der Akademie der Wissenschaften in Göttingen. 1965, S. 74-82.

٢) Heinz H. Giesecke
Richard Hartmann Bibliographie - Festgabe zum 70. Geburtstag. Leipzig, Harrassowitz 1951.

٣) Nachträge zur Richard Hartmann Bibliographie anläßlich seines 80. Geburtstages am 8. Juni 1961. Mitteilungen des Instituts für Orientforschung: Band IX, S. 139-143.

٤) نشير هنا الى بحثين أساسيين فقط ، يقدم كل منهما ـ من وجهة نظر مختلفة ـ فتحاً لجميع الدراسات حول التصوف الاسلامي : هيلموت ريتر ، بحر النفس ـ الانسان والعالم والله في قصص فريد الدين العطار (بالألمانية) .

وفريتز ماير : فواتح الجمال وفواتح الجلال لنجم الدين الكبرى ، عرض لخبرات صوفية في الاسلام . مو حوالى عام ١٢٠٠ ميلادي (بالألمانية) .

Helmut Ritter, Das Meer der Seele – Mensch, Welt und Gott in den Geschichten des Fariduddin 'Attar, Leiden: Brill 1955.

Fritz Meier, Die Fawātiḥ al-ğamāl wa-fawātiḥ al-ğalāl des Nağm addin al-kubrā, eine Darstellung mystischer Erfahrungen im Islam aus der Zeit um 1200 n. Chr., Wiesbaden, Steiner 1957.

قطعة موبيليا . مصر . القرن الحادي عشر ـ الثاني عشر ، من العاج .

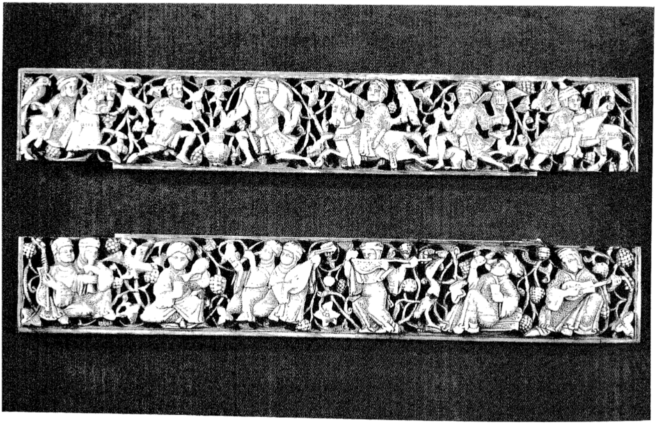

مفكرة ثقافية

يعتبر اكتشاف مدينة «حبوبة كبيرة» من أهم انجازات حفريات الآثار في الشرق . وتقع «حبوبة كبيرة» شرق مدينة حلب ، بالقرب من نهر الفرات بسوريا . وتدخل هذه الانجازات ضمن جهود جمعية الشرق الالمانية .

وقد سبق وعرضت عالمة الآثار المعروفة ايفا اشترومنجر لهذه الحفريات في كتيب وكتالوج وضعته لذلك بعنوان «حبوبة كبيرة ، مدينة قبل خمسة آلاف سنة» .

والمعرض الذي نشير اليه هنا يقدم نتائج الحفريات في هذه المدينة القديمة . وقد أقيم أولاً عام ١٩٨٠ في ميونخ ثم كريفلد ، وهو الآن في مدينة منستر (مقاطعة ڤستفاليا) . ويعود الفضل في ذلك الى هيئة الآثار بسوريا التي تقاسمت مع الهيئات الأجنبية التي قامت بالحفريات الآثار التي تم العثور عليها . وهكذا انتقلت مجموعة التحف المذكورة من الفرات الى متحف برلين ، وتشمل هذه التحف مجموعة من الأواني والأدوات والشخوص وأدوات الزينة وغير ذلك .

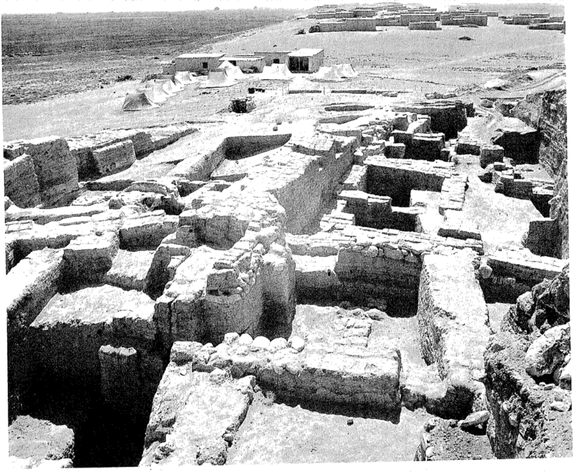

لقطة من قمة تل «حبوبة كبيرة» على منطقة الحفريات ، ومعسكر بعثة الآثار ، ووادي الفرات جنوباً . ويبرز المنظر في منطقة الحفريات من اليمين الى اليسار بعض غرف الورش ، وجدار القلعة الداخلي ، والجدار المحيط بالبئر وبجواره فرن الفخّار (أواني الفخّار والخزف) ثم جدار القلعة الخارجي .

أما مدينة «حبوبة كبيرة» فقد كانت مدينة محصنة قبل نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وكانت مركزاً رئيسياً للتجارة ، وتعتبر من بين الأقاليم الحضارية الهامة في غرب آسيا . وقد أمكن عن طريق الدراسات المقارنة للمعمار والآثار التي وجدت في منطقة ما بين النهرين التأريخ لحضارة هذه المدينة القديمة .

«**لورستان** . فنون البرونز في عصور ما قبل التاريخ في ايران» ـ ينظم هذا المعرض متحف التاريخ القديم بميونخ (متحف الدولة لعصور ما قبل التاريخ ولفجر التايخ) . وقد اعد العاملون بالمتحف كتالوجاً بالمعروضات ييسر على الزائر التعرف من خلاله على تحف المعرض .

ولا جدال في أن فنون ما قبل التاريخ في ايران ما زالت مجهولة الى مدى بعيد بالمقارنة بفنون عصور التاريخ التي تحظى منذ زمن طويل باهتمام كبير . وقد كرس البروفسور لويس فاندن برجه الأستاذ بجامعة جنت والمشرف على جناح «لورستان» بمتاحف الفن والتاريخ ببروكسل ، كرس جهوده لاستكشاف هذه الفنون وتقديمها واليه يعود الفضل في عقد هذا المعرض هذا العام بميونخ .

منذ أن عثر بعض فلاحي لورستان خلال حراثة أراضيهم عام ١٩٢٨ على بعض التحف البرونزية ، منذ ذاك يختلف علماء الآثار على مصدر هذه التحف وعلى تاريخها ، على الرغم من الشهرة التي تحظى بها الآن .

قاعة عمل مجهزة على الأرجح بمعدات صناعة الفخار .

نموذج لجنوب مدينة «حبوبة كبيرة» مقياس ١ الى ١٤٠٠ ، من تصميم ڤيدو لودڤيج وتنفيذ ڤرنز ايرله .

شخوص نسائية من الفخار («حبوبة كبيرة») .

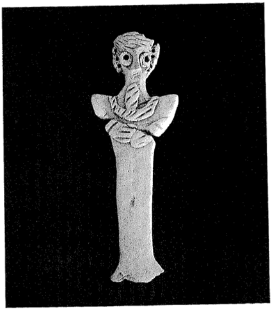

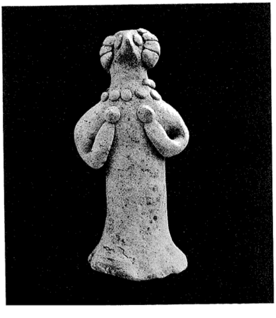

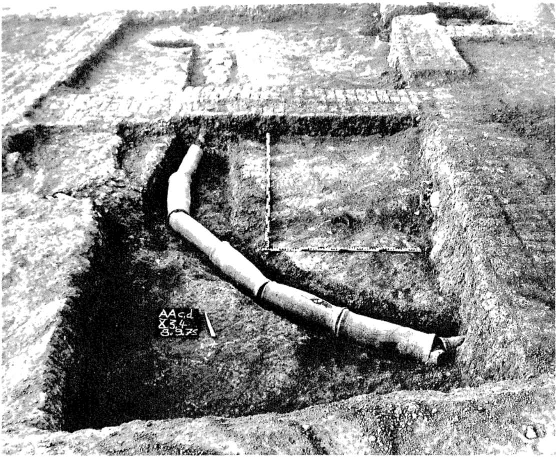

ماسورة صرف من الفخار في مجرى مغطى بالحجر .

تقع لورستان غرب ايران في منطقة السهل العالي على الحدود العراقية ، وتحدها خوزستان جنوباً وهمدان شرقاً وكرمنشاه شرقاً . منذ فترة غير بعيدة كان سكان لورستان من البدو الرحل . ومن المرجح أنهم قد حملوا معهم هذه الآثار البرونزية وهم في طريقهم الى منطقة السهل المرتفع حيث كانوا يقيمون في بعض البقاع المتفرقة وحيث وجد القسم الأكبر من هذه الآثار البرونزية .
ومن المرجح أن هذه العملات والتحف البرونزية قد صنعت في الألف الثانية قبل الميلاد . ونحن نعلم أن فنون لورستان الأخرى تعود الى عصور تالية (الى القرون الأولى بعد الميلاد) .

كان أعظم نجاح في تاريخ معارض الآثار في السنين الأخيرة من نصيب معرض **«توت عنخ آمون»** . وقد قدم هذا المعرض في برلين وكولونيا وميونخ وهانوفر وهامبورج . وأفردت له جميع المجلات المصورة أعداداً خاصة بحيث نستطيع القول انه قد دخل بصورة أو أخرى جميع المنازل في المانيا . بل انه كان لفترة طويلة شاغل النشء . فقد طبعت دور النشر العديد من الكتب والكراسات المصورة والمجهزة بالرسوم الايضاحية لتقديم هذه الفنون القديمة بطريقة جذابة تناسب جميع الأعمار . ولا انكار في أن المعرض كان فرصة تجارية فريدة للكثير من دور النشر .

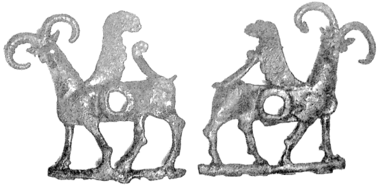

١) مشابك على هيئة جديان (جمع : جدى) مجنحة .

٢) أساور (جمع إسورة» من البرونز)

٣) أسطال (أوعية) بمماسك .

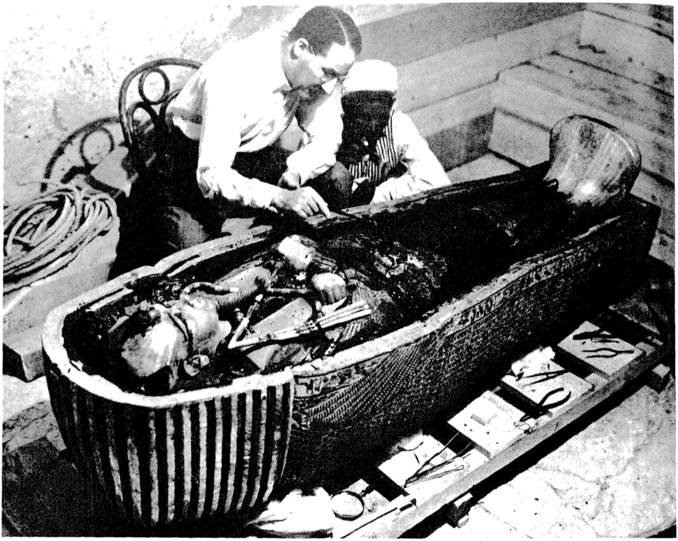

هورد كارتر مع أحد العمال خلال فحص تابوت توت عنخ آمون .

ولعلنا لا ننسى في هذا المضمار الاشارة الى كتالوج المعرض الذي أعدته دار نشر «فيليب فون سوبرن» والذي اقتناه معظم الزائرين . ومن المعروف أن دخل المعرض قد خصص لأعمال الآثار في مصر ، من أجل تدعيم المتاحف وتجهيزها وتحديثها . ولعل «توت عنخ آمون» في مماته يساهم هكذا في عمل نافع أكثر مما ساهم في حياته القصيرة . هكذا يقول مدير المتحف المصري ببرلين في معرض تقديمه لتحف معرض «توت عنخ آمون» .

«كنوز الفن الصيني» . عرضت تحف هذا المعرض في زيوريخ وبرلين وهيلدزهايم . وحتى مطلع عام ١٩٨٢ ستظل هذه التحف معروضة بكولونيا . ويشمل هذا المعرض تحفاً تعود الى خمسة آلاف عام قبل الميلاد وتمتد الى القرن التاسع بعد الميلاد . وقد اختيرت هذه التحف من بين الآثار التي عثر عليها حديثاً في الصين الشعبية .

ولعل أروع هذه التحف أو على الأقل أكثرها أهمية هي تلك الآثار التي وجدت في قبر القيصر كين شيهونج (٢٥٩ - ٢١٠ قبل الميلاد) ونختار من بينها نموذجاً لرأس من الفخار في حجم الرأس الطبيعي للانسان .

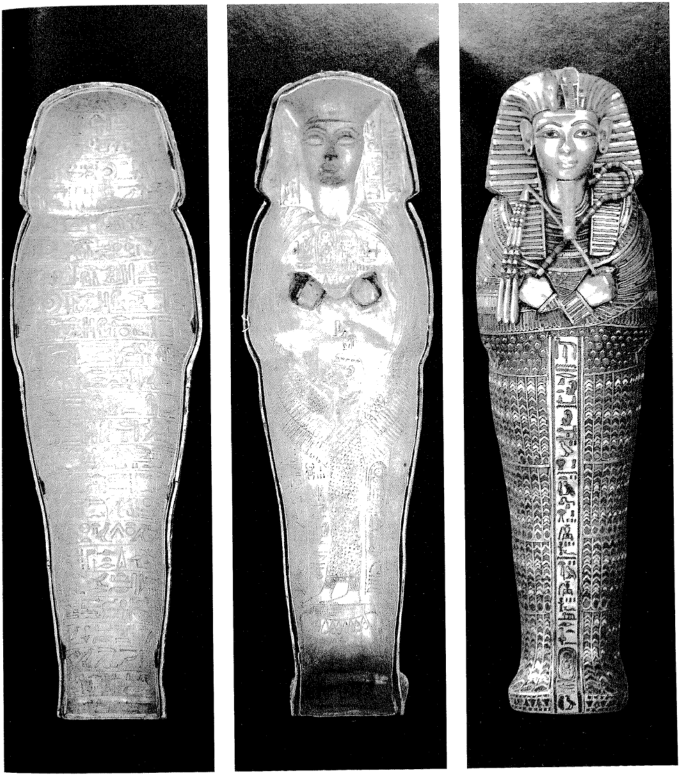

توت عنخ آمون ، توابيت الاحشاء . متحف الآثار المصرية ، القاهرة .

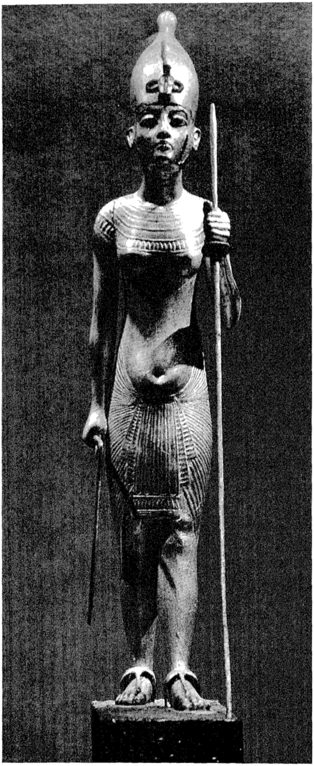

تمثال الملك منتصباً فوق فهد . متحف الآثار المصرية ـ القاهرة .

قناع توت عنخ آمون الذهبي . من معرض توت عنخ آمون في المانيا ١٩٨٠ / ١٩٨١ . ◄

رأس مقاتل . نحو عام ٢١٠ ـ ٢٢٠ قبل الميلاد . متحف كوين ليتونج ، الصين . من معرض «تحف من الصين» بزيورخ وبرلين وهيلدزهيم وكولونيا ، ◄ ◄
١٩٨١/١٩٨٠ .

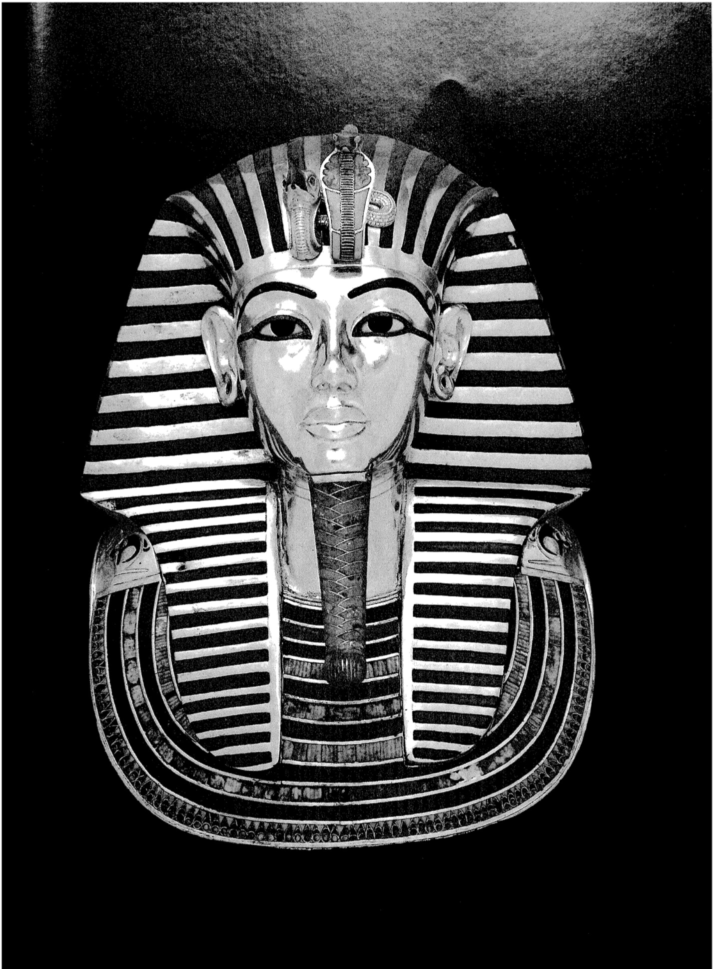

يوهان جيورج فون ديليس ، نظرة على روما ، ١٨١٨ ، جاليري شاك ، ميونيخ .

متحف الصور الزيتية القديم بميونخ ، الجانب الجنوبي والشرقي ـ طبع على الحجر ، دار نشر الفريد مايزل ـ درسدن نحو عام ١٨٦٠ (محفوظ بمتحف ◄ مدينة ميونخ) .

دمر هذا المبنى خلال الحرب العالمية الثانية ـ وقد شيد بين عامي ١٨٤٦ و١٨٥٤ بواسطة المهندس أوجست فون فويت ، ومولـه الملك لودڤيج الأول من أمواله الخاصة . أما رسوم الحائط التي تحيط بأعلى المبنى كشريط فقد نفذها فريدريش كريستوف نيلسون وفقاً لتصميمات من وضع ڤيلهلم فون كولباخ . والهدف منها ابراز ازدهار الفنون ورعايتها في تلك الحقبة .

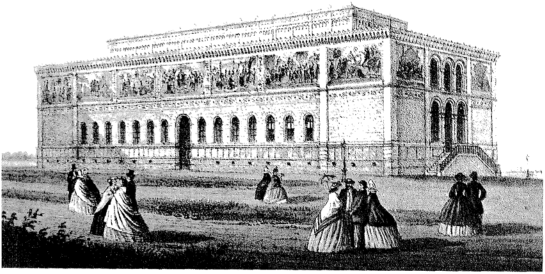

متحف الصور الزيتية الجديد بميونخ .

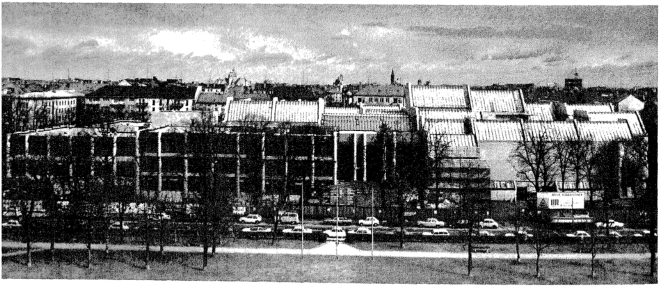

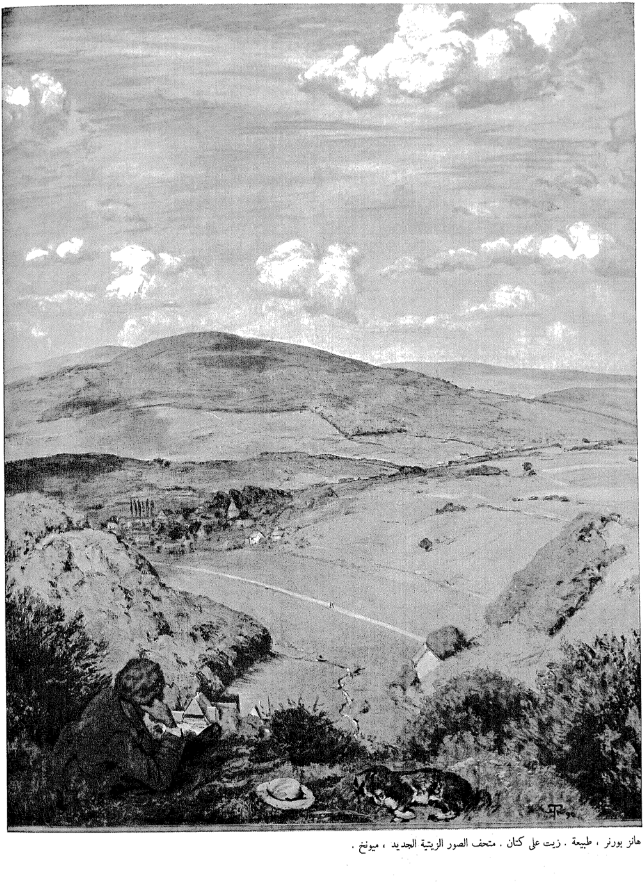

هانز بورنر ، طبيعة . زيت على كتان . متحف الصور الزيتية الجديد ، ميونخ .

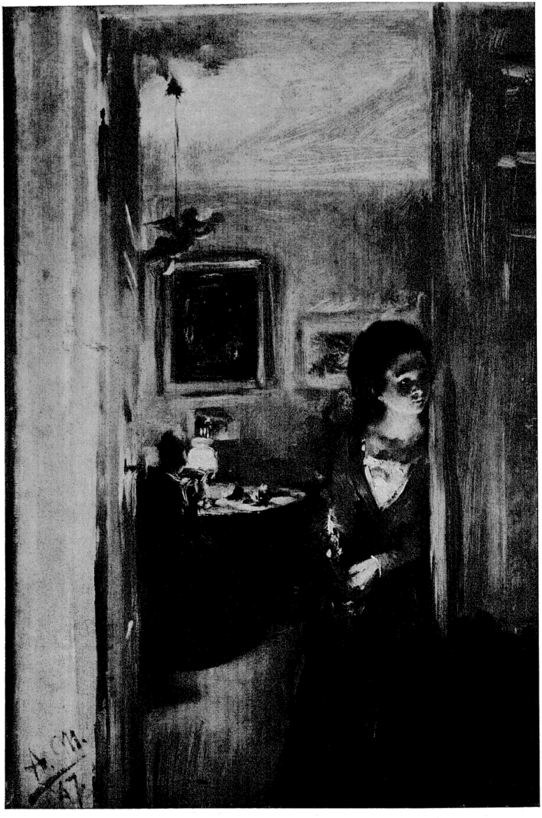

ادولف فون منسل ، حجرة المعيشة مع شقيقة منسل . جزء من لوحة زيتية ، زيت على ورق (١٩٠٨) .

هاب جريز هابر (١٩٠٩ ـ ١٩٨١)

الطباعة فن يحتاج الى الشباب المتجدد . فالطباعة لون من المغامرة . وبهذا المعنى فكل لوحة مطبوعة «مخاطرة» . في عملية الطباعة تجتمع ديناميكية هائلة ، تجتمع الصدفة مع الهدف . فالطباعة خبرة خاصة ، هي هواية الصنع والانتاج مع ضبط النفس ومراجعتها . هي نوع من التوتر والغريزة والقدرة التعبيرية والرديكالية التي يهدد الكمبيوتر بسلبنا إياها . الطبـاعة فن شبابي على الدوام ، فلنحذر أن تُسلب منا !

بسم الله
Helft dem ☪ Roten Halbmond!

FIKRUN WA FANN 36